المكتبة الزروقية

كتاب الإعانة

تحقيق وتقديم
الدكتور علي فهمي خشيم

الدار العربية للكتاب


UNIV.
LEIDEN
BIBL.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

التراث وصاحبه

كان صبياً يتيم الأبوين يدرج في « طالعة » فاس الكبرى ، فقيراً كل الفقر ، مهيض الجانب ، تتعثر خطاه وهو يتردد بين الكتّاب وبيته ، يحفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة من عمره ، يضمه جناح جدته الصالحة « أم البنين » ، يتعلم منها مبادىء الدين والصلاة والصوم ومعارف الاسلام . ذلك كان أحمد بن أحمد ابن محمد بن عيسى زروق البرنسي الفاسي[1] (٨٤٦ ــ ٨٩٩ هـ) .

وتمر الأيام وهو يتعلم الخرازة ، ثم يتركها ليتفرغ للعلم . فيذهب إلى « المدرسة العنانية » تلك التي بناها السلطان أبو عنان المريني ، ويقصد « جامع

(1) لمعلومات أوفر ينصح القارىء بالرجوع الى كتاب المحقق « أحمد زروق والزروقية » نشر مكتبة الفكر ــ طرابلس .

القرويين » الذائع الصيت ، حيث يدرس على أيدي كبار الفقهاء وأجلة العلماء يومذاك ، ويلتقي بأمثال : عبد الله بن محمد بن قاسم القوري ، ومحمد بن علي البسطي ، وعبد الله الفخار ، وأبي عبد الله المشذالي ، وعبد الرحمن الثعالبي ، وعبد الله العبدوسي ، وأبي فارس عبد العزيز الورياغلي ، وكثير جداً من شيوخ العلم في ذلك العصر .

كان طلب العلم شغله الشاغل ، وكان مهموماً باستقائه من مصادره والنهل من منابعه . ومن كانت هذه صفته ، فلا غرو أن تبدو علامات النجابة عليه منذ صغره وأن يبين نبوغه منذ بواكير صباه ، ويبرز تتاجه في مراحل شبابه الأولى .

ونحن نعرف ـ من المصادر المتوفرة لدينا ـ أن شيخنا كان يعد نفسه ليكون فقيهاً على النمط التقليدي المعروف،غير أن الاتجاه الصوفي الذيكان غالباً يومذاك ما لبث أن شده إليه وجعله ينحو هذا المنحى .. وإن لم تتضح معالمه إلا بعد مدة من الزمان ، كما يثبت شيخه العالم المعروف عبد الرحمان السخاوي في كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » . وهذا ما سوف نلحظه في سيرة زروق وتتاجه العلمي . كان فقيهاً متصوفاً ، أو صوفياً متفقهاً .. لا فرق . فان الشيخ لم يفصل بين العلمين ، بل جعلهما شيئاً واحداً ، أو هما ـ حسب تعبيره ـ مثل الروح والجسد .

كان في الرابعة والعشرين من عمره يوم امتدت يده ليسطر أول مؤلف له : « تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المديد » . كان ذلك في سنة ٨٧٠ هجرية . وكان هذا المؤلف مجموعة من « المسائل » رتبها في « أبواب » مثل باب « العلم » و « العقل » و « التوحيد » و « الطهارة » و « الصلاة » و « الصوم » و « الحج » و « الزكاة » ويختم بباب جامع يلخص فيه أقوال العلماء والفقهاء والمتصوفة في هذه المسائل . ثم خاتمة واعتذار تدل على تواضع جم . لنسمعه يقول :

« ... فوالله الذي لا إله إلا هو لقد تعديت في ارتكاب ما ارتكبت ، وأخطأت في ما ادعيت وانقلبت . وإنما الحامل حبّ الرئاسة وقوة شيطنة ... فعلى الناظر في هذا الجزء أن يتبع مسائله بالنقد والبحث — إن أمكنه — حتى يستخرج مكامنه وينظر فيه بعين الإنصاف فإن أكثره منقول بالمعنى ... فاظروا قبحي ، ولا تظنوا ارتكابي لهذا الأمر من غزارة علمي . بل هو من سوء فعلي وتكلفي ما ليس من شأني ... وأنا أستغفر الله من ارتكابي هذا النمط وأسأله العافية من موارد السوء والغلط . وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

صورة جميلة للتواضع العلمي المطلوب ، وعبارات اعتذار رقيقة تدل على صفات حميدة ، لا تكلف فيها ولا افتعال ، ولا تطاول بحال من الأحوال .

في السنة ذاتها — أعني سنة ٨٧٠ هجرية — كان أحمد زروق منهمكاً في تأليف آخر شغله أمره طوال حياته فيما بعد . ففي تلك السنة كتب أول شرح له على « الحكم العطائية » . و « الحكم » كتاب يعد من أنفس الكتب في بابه.. لغة وتعبيراً وصياغة وأفكاراً . وقد كتبه الصوفي الشاذلي الشهير تاج الدين بن عطاء الله السكندري . ويقول الكثيرون ممن ترجموا لزروق أنه كتب ما يزيد عن ثلاثين شرحاً للحكم . لكن الثابت أنه كتب سبعة عشر شرحاً[1] . سبعة عشر شرحاً مختلفة يقع بعضها في خمسمائة صفحة ، منها ما يختص باللغة ، ومنها ما يهتم بالرمز الصوفي ، ومنها ما يعنى بحكايات الصوفية .. إلى غير ذلك من نواحي البحث والشرح والتعليق . أي جهد وأي عمل ! أي عطاء وأي تفرغ للدرس والبحث والكتابة !

* * *

(1) نشر الشرح السابع عشر مرتين في السنوات الأخيرة.احداهما بتحقيق د. عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف — مكتبة النجاح — طرابلس . والأخرى بتحقيق أحمد زكي عطية ، منشورات الجامعة الليبية — بنغازي .

ثم يغادر زروق مدينة فاس ، ويخرج منها متجهاً إلى المشرق • ويلتقي في الطريق بالعلماء الأفذاذ في تونس والقيروان وطرابلس حتى يصل إلى القاهرة • ويأخذ في تونس عن محمد بن قاسم الرصّاع ، وفي طرابلس عن أحمد بن عبد الرحمان الزليتي ، المعروف بحلولو ، وعن علي الخروبي الطرابلسي ــ وهما من كبار أئمة المذهب المالكي • أما في القاهرة فقد خالط مشاهير علمائها في أيامه ، نذكر منهم : محمد السخاوي صاحب « الضوء اللامع » واللغوي شمس الدين الجوجري ، والفقيه نور الدين التنسي ، والمحدث أحمد بن حجر ، ونور الدين السنهوري وشهاب الدين الأبشيهي وابراهيم الدميري •• وسواهم كثيرون •

ووسط تلك البيئة العلمية الزاخرة يلتقط شيخنا أمهات الكتب ومصادر المعرفة ليحفظها ويدرسها ويعيها • وهو يسجل لنا في « كناشه » جملة كبيرة من الكتب التي درسها هناك •

وهو يذهب للحج ، ثم يعود ، لينخرط ــ فيما بعد ــ في سلك أهل التصوف بعد لقائه مع الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي ويصبح من أتباعه ومريديه • غير أن اتجاهه الصوفي يزيده رغبة في العلم وغزارة في العطاء،كأنما حلت البركة في يده الكريمة ، فلا تقف عن التسجيل في كل باب طرقه •

فلننظر الآن إلى بعض آثاره ونعددها ، ثم نميز بعضاً منها نفرده بالحديث •

في التصوف :

١ ــ أرجوزة في عيوب النفس (وهي رجز لمؤلف عبد الرحمان السلمي المشهور: عيوب النفس) •

٢ ــ الأصول البديعة والجوامع الرفيعة •

٣ ــ أصول الطريقة وأسس الحقيقة •

٤ ــ الأنس في شرح عيوب النفس •

٥ ــ إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين •

٦ ــ إعراب « إن لم أجد إلهي » •

٧ ــ تحفة المريد •

٨ ــ الجامع لجمل من الفوائد والمنافع •

٩ ــ الهمع في شرح أبيات الجمع •

١٠ــ رسالة في الرد على أهل البدع •

١١ــ روضة الأزهار •

١٢ــ سلوك الطريق إذا فقد الرفيق •

١٣ــ شرح أبيات « تطهر بماء العيب » للجنيد •

١٤ــ شرح الأجرومية •

١٥ــ شرح « الحقائق والرقائق » للمقري •

١٦ــ شرح الشمشية •

١٧ــ شرح « صدور المراتب ونيل المراغب » للحضرمي •

١٨ــ شرح « المباحث الأصلية » لابن البنا السرقسطي •

١٩ــ شرح « المراصد » لابن عقبة الحضرمي •

٢٠ــ شرح « نونية الششتري » •

٢١ـ شرح « الوغليسية » .

٢٢ـ شروح « الحكم العطائية » ـ ١٧ شرحاً .

٢٣ـ كتاب « السماع » .

٢٤ـ كتاب « المحبة » .

٢٥ـ الكلام على أنواع أهل الخصوصية .

٢٦ـ مزيل اللبس عن القواعد الخمس .

٢٧ـ النصح الأنفع والجنّة للمعتصم من البدع بالسنّة .

٢٨ـ النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية .

٢٩ـ قواعد التصوف .

٣٠ـ عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت .

في علم الحديث :

١ ـ تعليق على البخاري .

٢ ـ جزء في علم الحديث .

٣ ـ حاشية على مسلم .

٤ ـ رسالة في تحديد مصطلح الحديث .

٥ ـ شرح الأربعين حديثاً .

٦ ـــ شرح حديث « المعدة بيت الداء » .

في الذكر الصوفي :

١ ـــ الحفيظـــة .

٢ ـــ شرح أسماء الله الحسنى .

٣ ـــ شرح « دلائل الخيرات » للجزولي .

٤ ـــ فتح المقام الأسنى في ما يتعلق بمقاصد الاسماء .

٥ ـــ شرح « حزب البحر » للشاذلي .

٦ ـــ « شرح حزب البر » للشاذلي .

٧ ـــ شرح مغمضات حزبي الشاذلي .

٨ ـــ الوظيفـــة .

في الرحلات :

١ ـــ الرحـــلة .

٢ ـــ الكنّاش .

في الطب :

تلخيص الدرة المنتخبة في الأدوية المجرّبة .

في الدراسات القرآنية :

١ — تفسير القرآن الكريم .

٢ — شرح سورة الفاتحة .

في الفقــه :

١ — مناسك الحج .

٢ — شرح « الارشاد » .

٣ — شرح « الوغليسيّة » .

٤ — شرح الحكيم الترمذي .

٥ — شرح مواضع من « مختصر » خليل .

٦ — شرح نظم الرقعي .

٧ — شرح « قواعد » عياض .

٨ — شرح القرطبية .

٩ — شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني — شرحان .

١٠— شرح الغافقية .

١١ —شرح « المرشدة » .

١٢— شرح « عقيدة الغزالي » .

في التراجم :

١ — الكناش .

٢ ـــ مناقب الحضرمي ــ كتابان : كبير ومختصر •

في علم الحروف والأرقام :

١ ـــ رسالة في العد على الأصابع •

٢ ـــ شرح «السينية » •

٣ ـــ العرف في تعريف الحرف •

إلى جانب عــدد لا يحصى من رسائــل للسالكين والأتبــاع ، وقصائد شعرية كثيرة •

ومن الطبيعي هنا الإشارة إلى أنني لم أحصر كل ما كتب زروق في هـــذه العجالـــة ، وإنما أشرت إلى ما عرف منها • فإن رسائله وحـــدهاءأعني مكاتباته لأصحابه وشيوخه وتلاميذه ، تحتاج إلى تأليف قائم بذاته تجمع فيه وترتب . ثم تناقش وتحلل ، ويربط بعضها ببعض ، بدراسة العلاقة بينه وبين من كتب إليهم. وظروف الكتابة ودلالتها • ويا ألف ليت أن يقوم بهذا العمل بعض النابهين من أبنائنا طلاب الجامعة أو نحوهم من المهتمين •

وطبيعي أيضاً القول بأنه ليس كل ما ذكر موجوداً الآن . فان بعضه لم يعثر له على أثر ، وبعضه الآخر مخبأ في الخزائن ، وبعضه الثالث موزع بين مكتبات بلاد الدنيا ومتاحفها •

كان زروق ـــ رحمه الله ـــ كثـير الترحال ، وكذلك كانت آثاره مثله . بعضها يوجد مخطوطاً في مكتبة الأسكوريال باسبانيا ، ودار الكتب الوطنية بمدريد ، وغيرها تضمه أروقة المتحف البريطاني أو جامعة برنستون الأمريكية . أو يرقد في خزانة كتب السليمانية باسطمبول • وأخرى سافرت حتى بلغت مكتبة

مدينة جاكرتا بأندونيسيا وبلغت الهند حيث استقرت في بومباي أو بجامعـــة عليكرة • وسواها تلقفته أيدي الألمان الشرقيين والغربيين على حد سواء ، بينما أخذ الفرنسيون نصيبهم وأودعوه المكتبة الوطنية بباريس • ولم ينس كهنة الفاتيكان حصتهم فأخذوها بطريقة ما ، وأبقوا شيئاً لجامعات بريطانيا وايرلندا ليزينوا بها مكتبات منشستر وشستربيتي • وبقيت بقية لمكتبة وارسو في بولندا ، وبقية البقية ظلت بين الرباط والجزائر وتونس والقاهرة ، وأقل القليل في مكتبة الأوقاف بطرابلس •

* * *

منذ كان في الرابعة والعشرين من عمره ــ حسب الثابت لدينا ــ وحتى وفاته ظل قلم زروق سيالاً لا ينضب مداده • ولقد صدق أحمد بابا التنبكتي إذ يقول عنه في مؤلفه « نيل الابتهاج »: « وعلى الجملة فان فضله فوق أن يوصف. ومن تتبع زروق ونصائحة ورسائله جمع مجلداً كاملاً منها »•وقد وعدنا التنبكتي أن يفرد مؤلفاً خاصاً بآثار زروق ، غير أنه لم يوف بوعده ، وربما لأمر عرض له فلم يفعل • ولو فعل لكان لنا خير مصدر في الحديث عن الإمام الذي تفرغ لعلمه لا يشغله عنه شيء ولا يحب أن يشغل بشيء ، حتى كان يتردد أنه كان يجلس قريباً من زاويته بمصراته في جابية اختارها مجلساً ، فيضيق بأمرين : المـارة ــ الذين يكثرون من سؤاله والحديث إليه ، فيضطر لأن يجيبهم فيضيعون وقته سدى • والريح ــ التي تطير أوراقه ، فيضطر لملاحقتها واللحاق بها لاسترجاعها •

ومن هذه الأوراق الكثيرة المتطايرة لنختر بعضاً يحمل عنوان « قواعـد التصوف » • فإن هذا الأثر من آثار زروق ليعتبر إحدى الدرر النوادر في عالم الصوفية ــ ليس في أفكاره فحسب بل في لغته الجميلة المنسقة وتبويبه البديع وترتيبه المنظم الذي يدل على عقل نموذجي يعرف ما يريد ويعبر عنه أجمل تعبير • فلنقرأ شيئاً من هذا السفر الجليل :

« الحمد لله كما يجب لعظيم مجده وجلاله ، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد وآلـه ...

قاعـــدة

الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته وفائدتـه بشعور ذهني مكتسب أو بديهي ، ليرجع إليه في إقرار ما وقع عليه رداً وقبولاً وتأصيلاً وتفصيلا . فلزم تقديم ذلك على الخوض فيه ، إعلاماً به وتحضيضاً عليه وإيماء لمادته . فافهم .

قاعـــدة

ماهية الشيء حقيقته ، وحقيقته ما دلت عليه جملته ، وتعريف ذلك بحدّ وهو أجمع ، أو رسم وهو أوضح ، أو تفسير وهو أتم لبيانه وسرعة فهمه .

وقد حدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفـين ، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى ، وإنما هي وجوه فيه .. والله أعلم .

قاعـــدة

الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بعد إدراك جملتها . ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه ، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله ، واعتبار كل واحد على حسب مناله منه علماً أو عملاً أو حالا أو ذوقاً ، أو غير ذلك .

والاختلاف في التصوف من ذلك ...

صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه ، ولا يصح مشروط بدون شرط (ولا يرضى لعباده الكفر) فلزم تحقيق الإيمان (وإن تشكروا يرضه لكم) فلزم العمل بالإسلام .

فلا تصوّف إلا بفقه ، إذ لا تعرف أحكام الظاهر إلا منه .

ولا فقه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه .

ولا هما إلا بإيمان ، إذ لا يصح واحد منهما دونه . فلزم الجميع ، لتلازمها في الحكم ، كتلازم الأرواح والأجساد،ولا وجود لها إلا فيها ، كما لا حياة لها إلا بها .. فافهم ! » .

وهكذا يمضي يرتب قاعدة على أخرى حتى يتجاوز المائتي قاعدة هي خلاصة مذهبه الصوفي المتميز .

* * *

إن « قواعد التصوف » كتاب صغير الحجم بالنسبة لمؤلف آخر شهير لزرّوق .. أعني « عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت » . وإذا كان ثمة عمل جمع بين العلم بالفقه والمعرفة بالتصوف ، وبني على روح الغيرة على أهل الله أن يضلوا أو ينحرف بعض الجاهلين من أتباعهم، وأسس على منهج النقد الهادف البنـاء في تماسك ومنطق تامين ، فهو هـذا الكتاب بعينه .

إنه يبدأ هكذا :

« الحمد لله الذي رَفعَ عماد السنّة وأعلى منارها ، وخفض وجود البدعة وكسف أنوارها ، وأوضح شواهد الحقيقة وأظهر أسرارها، وكشف طريق الباطل وطمس آثارها ، وبيّن مناهج الحق وشيد أسوارها ، وأمر باتباع السنّة وألزم إيثارها . فالسعيد من استبصر فأبصرَ ، والموفّق من نبّه فتذكّر ، والمحروم من توقف فتحير :

فلا هو مقتول ففي الموت راحة ولا هـو ممنون عليـه فيعتق

أما قبل ، ومع ، وبعد ..

فإن في كل واد بني سعد ، من اطمأن إليهم أتلفوه ، ومن تعلق بهم كشفوه ، ومن استعان بهم أوقفوه . أعني الذين اتخذوا الجهل عماداً ، والابتداع وساداً ، والباطل المزخرف مهاداً ... » الخ .

ثم يبين الطريق الصوفي السليم البعيد عن البدعة والابتداع ، البريء من الدروشة والجذب والشطح ، المعتمد على العلم والعمل في توازن سليم بين الروح والجسد ، والمثال والواقع ، المستند إلى السنّة النبوية وسيرة السلف الصالح . ويثبت زرّوق مائة فصل ، رائق اللفظ ، فصيح اللسان ، واضح البيان .

* * *

إن محاربة زرّوق للبدع التي عمت الصوفية جعلته لا يكتفي بتسجيل موقفه في كتاب واحد . بل هو ينثر آراءه هنا وهناك ، ويفرد مؤلفات أخرى بياناً لهذا الموقف الصريح في وقت طغت فيه الغوغائية وعلا جهلة القوم وترأس الطوائف أناس اعتمـدوا عـلى الشعبذة والشعوذة واجتذاب العامة بالألاعيب والخزعبلات . ولعل مؤلفه « الرد على أهل البدعة » خير ممثل لهذا الموقف ، يسنده كتابه الآخر « النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة » .

* * *

كان الشيخ يحارب في جبهتين — كما يقال في التعبيرات الحديثة — وهو كأي عالم يدرك واجبه ويحرص على أدائه يوجه نقده لمنحرفي الصوفية من جهة ، ثم يؤسس قواعد التصوف السنّي التأملي الواعي من جهة أخرى • ثم يلتفت ليضع مبادىء للسالك والمريد هي من أبدع ما يقرأ المرء في مؤلف آخر عنوانه « إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين » • وندرك من العنوان أنه مرشد للمتوجه في طريق التصوف يعينه على الوصول إلى بغيته •

وإذا كان « العقل » أو « الذهن » موضع العلم المكتسب فان « القلب » في لغة المتصوفة هو موطن العلم اللدني أو الفتح الرباني • ولذا فان « القلب » هو الذي يوجه إليه الحديث وعنه في هذا المقام فلنقرأ :

« أما قبل كل شيء ومعه وبعده ، فليس على الحقيقة إلا الله ، من تمسك بحبله المتين ملك ، ومن حاد عن بابه الكريم هلك ، إذ لا عاصم من حبل الله إلا من رحم ، ولا هداية إلا لمن بحبل جواره الكريم اعتصم •••

القلب أساس الخير والشر، وحياته وموته مفتاح النفع والضر • فمن لا حياة لقلبه فلا حيلة في دفعه وجلبه ، وكل قلب حلّته الحياة دعته إلى النهوض عند المذاكرات •

والقلوب ثلاثة : أولها : قلب في حياته صحيح ، وفي خطابه فصيح • فصاحبه ينطق بالحكمة وينهض في كل ملمّة • الثاني : قلب لا حياة فيه ، فهو لا يقبل التذكير ولا التنبيه ، فضلاً عن اتباع الحق أو التأدب مع الخلق • الثالث : قلب اعترته في حياته أمراض ، وصحبته في أحواله اعتراضات وأعراض • فعرض الإعراض مما عرض ، وهو الذي يتألم عند ذكر ماله من مرض ، وهو الذي يقصد بالمداواة ويرصد بالمعاناة ، رجاء استقامة حياته ، أو توقيف العلة حتى لا تؤدي لماته ••• » إلى أن يقول :

« دخول العلة على القلب الساذج سهل التعالج ، بخلاف الذي سقم بعد

صحته ورجع بعد عودته ، لكمون الضرر فيه وأنسه بما يقتفيه . ولذلك إذا صح تمكنت الحقيقة منه وانتفت الغرة عنه، إذا صار على حذر من النكس ، ومستشعراً وجود النقص في العكس ، لكن ثباته أغرب ، وإن كان رجوعه أيسر وأقرب ...»

ثم يقدم « التشخيص » اللازم لأنواع القلوب ، ويحلل بقدرة فائقة ضروب العلاج وطرقه وكيفياته ، حتى يخلص القلب لله ـ عزّ وجل ـ وحده ويصدق توجهه نحوه . ويختم هذا الكتاب القريد في بابه بفرائد من الحكم الغوالي حتى يقول :

« ... ونستعين على أمرنا بالله ثم بإفراد الهمة في المقاصد وإفراد الحقيقة للمطالب . ونجعل الآخرة نصب أعيننا ـ إن عقلنا ـ ولا نسمع لمن برق ورعد ، ولا لمن قام وقعد . فان القوم ـ في هذه الأزمنة ـ نادوا الحقيقة بالحرج ، والآخرين مشوا إلى الحق بالعرج . فلا علم عن الحرام يصد ، ولا ورع عن الاسترسال يرد ... وقد صح أن لا كمال إلا بالعلم ولا خطر للعلم إلا بالعمل ، فلا تسمع مقالة من صدّك عن واحد منهما ولا من رجح واحداً في محل الآخر دونه ... » .

ويطول بنا الحديث لو مضينا نقتبس من آثار الشيخ وكلماته ، ولن تنتهي بحال . فان كل جملة سطرها أو عبارة دوّنها تحمل في طياتها مجموعة هائلة من المعارف والمعاني تحتاج إلى تعمّق ونظر وفهم وإدراك . فإذا ما اخترنا أيّاً من مؤلفاته وجدنا بحراً متلاطماً من العلم الذي لا ينتهي مداه .

* * *

كان أحمد زروق في أوائل الرابعة والخمسين من عمره يوم أن توفاه الله في خلوته بمصراتة وهو في عنفوان شبابه الفكري .. وقد مكث في مصراتة مدة تزيد عن خمسة عشر عاماً هي أخصب سنوات عمره الثري . وكم شهدته مرابعها

قارئاً شارحاً معلماً مفتياً شيخا مرشداً • فماذا وجد القوم حين جاءوا ليحصروا تركته ؟ هذا هو الجواب كما سجله أبو سالم العياشي في « رحلته » من أصل ورقة الحصر :

نصف فرس يشاركه فيها الحاج عبد الله بن محمد الدكيراني المصراتي ، وبرنوساً أبيض وجبة وثوباً من الصوف ومسبحة أهداها إليه شيخه ابن عقبة الحضرمي، ثم أربعة عشر مجلداً من مؤلفاته ومؤلفات غيره في مختلف الموضوعات!!

لم يترك عقاراً ولا ذهباً ولا فضة •• بل أربعة عشر مجلداً هي التي خلدته على مدى خمس مئين من السنين ، وإلى ما شاء الله • هذه صفة العلماء المخلصين الذين استغنوا بعلمهم عن متاع الغرور، وارتفعت نفوسهم عن مادية الحياة الدنيا • ووجدوا في طلب العلم ونشره تحقيق ذواتهم بإفادة غيرهم من الناس •

فكيف برجل تجشم مشقة السفر من المغرب إلى الحجاز — وما كان أمر السفر في تلك العهود الخوالي — مرات ثلاث أو أكثر ، وتنقل بين عواصم المعرفة وأقام فيها دارساً ومدرساً بـدءاً من العواصم الكبرى — كالقيروان وطرابلس والقاهرة — حتى واحات الصحراء مثـل أوجلة وانتهـاء بأواسط المدن مثل زليتن ومسلاته ، إلى أن تخيـر مقاماً له هـذه البقعة العزيزة من بلد مصراتة — ذات الرمال •

إن القلم ليعجز عن تتبع حياة زروق وفضائله وأعماله ، فكيف بالتعرض له عالماً وهو البحر العباب ؟

إن مؤلفه الجميل شرح « رسالة » ابن أبي زيـد القيرواني — بـل هما شرحان — ليحتاج إلى أيام طوال لمجرد استعراضه • فقد كانت «رسالة القيرواني» — ولا تزال — أحد المصادر الكبرى للفقه المالكي • وكان شرح زروق أحد أعمدة فهمها وتتبع مسائلها وتدقيقاتها • وهو عمل يجب الاحتفاء به وتقديره •

كذلك « شرح الغافقية » له أيضاً . أثر آخر فيه من دلائل الفقه الشيء الكثير . وزميله « شرح القرطبية » يماثله ويزيد عليه .

فإذا قرأنا شرحه لعقيدة الغزالي وجدنا أنفسنا أمام أحد التعليقات الممتازة على واحدة من دعائم المذهب السني قمينة بأن يرجع إليها في دراسة المذهب وفهمه.

* * *

لم يكن زروق مجرد « مرابط » أو درويش أو مجذوب حل بهذا البلد وتجمع من حوله الناس التماساً للبركـة . ولا شك أنه كان « مباركاً » بعلمه وسلوكه وأثره وتأثيره . ولذا فلم يكن عجيباً أن يتحلق من حوله التلاميذ وتلمع أسماء بعضها من مصراته وبعضها من خارجها جاء أصحابها يتبعونه كالحواريين من مختلف البلدان . فشمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين اللذان تبعاه من مصر إلى مصراته ليسا اسمين مجهولين في دوائر الفقه والعلوم الاسلامية ، كما أن الخروبي ، أبا عبد الله محمد ، اسم ضخم في تاريخ طرابلس العلمي ، وله آثاره الكثيرة . وكـذلك الشيخ عبـد الكريم البرموني ، والصوفي الأشهر عبد السلام بن سليم الفيتوري دفين زليتن ، ويوسف الراشدي مؤسس الطريقة الراشدية في المغرب، ومحمد البكري منشيء « البكرية » في مصر ، وعبد الوهاب الشعراني صاحب المؤلفـات الشهيرة ، إلى جانب أسماء لامعـة أخرى لا تعد ولا تحصى . كلها درس على يده ، وبعضها جاء وعاش واستوطن مصراته في سبيل القرب منه .

ولا عجب ـ وهذا حال الشيخ ـ أن يكون مجلسه في أيامه ، وزاويته من بعد ، مصدر إشعاع لا ينتهي ونور لا ينطفيء لإضاءة الدياجير التي تراكمت في فترات التأخر والتخلف بعد مجيء الاستعمار بمختلف جنسياته إلى بلادنا . وإن قائمة العلماء الذين تخرجوا في هذه الزاوية لمشرفة جداً .. في عهودها القديمة

وفي العصر الحديث . وكان أثر أحمد زروق بشخصه وتراثه ، في مجالي التصوف والفقه ، أثراً بعيد المدى .

وقد آن الأوان لنفض الغبار عن تراث الشيخ ونشره وتقديمه لعامة القراء وخاصتهم ، حتى تتبين مكانته الكريمة ويأخذ حظه الواجب من الدرس والبحث في مؤلفاته وأعماله ، ويصبح في متناول الباحثين تراث طال الزمن على إهماله وحق له اليوم أن يجد سبيله إليهم ويجدوا هم إليه السبيل .

* * *

وبعـد :

فلست أجد ما أختم به هذه اللمحة الخاطفة إلا قطوفاً من رياض سيدي أحمد زروق الوارفة مستعيداً بها ذكرى ترديده لها في زاويته وعلى مسامع تلاميذه:

* « إنما يؤخذ علم كل شيء من أربابه . فلا يعتمد صوفي في الفقه إلا أن يعرف قيامه عليه ، ولا فقيه في التصوف إلا أن يعرف تحقيقه له . ولا محدث فيهما إلا أن يعلم قيامه بهما » .

* « تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدّد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن . فمن ثم كان لكل فريق طريق .

فللعامي تصوف ، حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه .

وللفقيه تصوف ، رامه ابن الحاج في (مدخله) .

وللمحدث تصوف ، حام حوله ابن العربي في (سراجه) .

وللعابد تصوف ، دار عليه الغزالي في (منهاجه) .

وللمتريض تصوف، نبه عليه القشيري في (رسالته) •

وللناسك تصوف، حواه (الغوث) و (الإحياء) •

وللحكيم تصوف، أدخله الحاتمي في كتبه •

وللمنطقي تصوف، نحا إليه ابن سبعين في تآليفه •

وللطبائعي تصوف، جاء به البوني في (أسراره) •

وللأصولي تصوف، قام الشاذلي بتحقيقه •

فليعتبر كل بأصله من محله • » •

* « تعتبر دعوى المدعي بنتيجة دعواه • فإن ظهرت صحت وإلا فهو كاذب•

فتوبة لا تتبعها تقوى باطلة •

وتقوى لا تظهر بها استقامة مدخولة •

واستقامة لاورع فيها غير تامة •

وورع لا ينتج زهداً قاصر •

وزهد لا يثير توكلاً يابس •

وتوكل لا تظهر ثمرته بالانقطاع إلى الله واللجأ إليه صورة لا حقيقة لها » •

* « الخلق هيئة راسخة في النفس تنشأ عنها الأمور بسهولة، فحسنها حسن وقبيحها قبيح •

فهي تجري في المضادات، كالبخل والسخاء، والتواضع والكبر، والحرص

والقناعة ، والحقد وسلامة الصدر ، والحسد والتسليم ، والطمع والتقزز والانتصار والسماح .. إلى غير ذلك . فافهم ! » .

* « الفقر والغنى وصفان وجوديان ، يصح اتصاف الحق بالثاني منهما دون الأول ، فلزم فضله عليه » .

* « ألسنة الخلق أقلام الحق .

فثناؤهم عليه بما يرتضيه الحق ثناء من الحق عليه بذلك » .

* « الضروري : مالا يؤمن الهلاك بفقده .

والحاجي : ما أدى فقده لخلل غير مستهلك .

والتكميلي : ما كان وجوده أولى من فقده ؛

وذلك يجري في كل شيء يكتسب .

فوجب مراعاة المراتب على ترتيبها بتقديم كلّ على ما بعده » .

* « آلات العلم أربعة :

شيخ فتّاح .

وعقل رجّاح .

وكتب صحاح .

ومداومة وإلحاح » .

* « أصول البلاء في الدنيا والآخرة خمسة :

خوف الخلق ــ وميراثه الحرص والطمع .

والرضا عن النفس ــ وميراثه المقت والامتحان .

واتباع الشهوات ــ وميراثه التشبه والتشوف للمخلوقات .

واتباع التأويل ــ وميراثه نقص العزائم والانحلال عن الدين .

والعكس بالعكس .. أعاذنا الله من البلاء بمنه ! » .

* « علامات الإحسان ثلاثة : كظم الغيظ ، وحفظ الغيبة ، وستر العيب . وعلامات المعرفة ثلاثة: الإقبال على الله،والانقطاع إلى الله،والافتخار بالله. وعلامات الفكرة ثلاثة : سرعة الأفكار ، وإدمان الاعتبار ، وكثرة الاستغفار » .

* « أصول الخير ثلاثة : التواضع

وحسن الخلق

والنصيحة .

فالتواضع تتبعه ثلاثة :

الإنصاف من نفسك
وترك الانتصاف لها
وخدمة المؤمنين .

وحسن الخلق تتبعه ثلاثة :

العدل في الرضا والغضب
والقصد في الفقر والغنى

والخشية في السرّ والعلانية .

والنصيحة تتبعها ثلاثة :

العمل الصالح
والعلم الصحيح
واتباع الحق في كل حال » .

[قواعد التصوف] .

* * *

ونستعين الله – سبحانه – ونتوكل عليه . وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

مصراته – ١٩٧٦/٧/٢٩

علي فهمي خشيم

مقدمة

هذا كتاب يقدم نفسه بنفسه ، بعنوانه ، وديباجته ، ثم بنظامه الذي سار عليه مؤلفه .

فالعنوان : « إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين » يشير بوضوح إلى أنه وضع في الأساس مرشداً للمبتدئين في سلوك الطريق الصوفي ، ومعيناً للمريدين في السير خطوة خطوة نحو الغاية السامية التي ينشدون ، بالتدرج في مراحل الطريق الذي يبدأ بتنقية القلب من الشوائب ، وينتهي بمرحلة التحقق الكامل في بساط التجلي المعرفي الرباني .

وما دام المقرر أنه « ليس على الحقيقة إلا الله » فإن « من تمسك بحبله المتين ملكك ، ومن حاد عن بابه الكريم هلك . إذ لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، ولا هداية إلا لمن بحبل جواره معتصم . فيصل الحقيقة بالشريعة ، بعد التنصل من كل قبيحة وشنيعة . مؤثراً السلامة في طريقه ، قائماً بالحق على بساط تحقيقه . بذهن سليم حاضر ، وقلب منيب لمولاه ناظر . يضع كل شيء في محله ، ويحقق العلم والعمل بأصله » . وهذه غاية الكتاب وهدفه .. يفصله زروق لكل متوجه ، يأخذ بيده في ترتيب متقن وتبويب منظم دقيق ، حتى يبلغه مبتغاه في تسلسل رائق عجيب .

إنه يقسّم مؤلفه إلى مواقف ثلاثة ، يختص الموقف الأول منها بتحقيق التوبة ، وهو أول مراحل الطريق . ثم يقسم هذا الموقف إلى أقطاب ، وتتفرع الأقطاب إلى أقسام ، ومعالم ، وأركان ، وأطراف . وهذه تتشعب بدورها إلى علامات ، ووجوه ، وأنواع ، ومواقع ، وقواعد ، وأمثلة ، ومداخل .

ثم هو يخصص الموقف الثاني لموضوع الاستقامة ، وهو المرحلة الثانية — بعد تحقيق التوبة — الذي يقسمه إلى ثلاثة بسط ، يتفرع كل بساط منها إلى فروع ، وينقسم البساط الثالث إلى قسمين ، ما يتعلق بالأخلاق ، وما يتصل بالمعاملات — معاملة النفس ومعاملة الخلق ومعاملة الحق . ولكل من هذه أضرب ، وأنحاء ، ومراصد .

أما الموقف الثالث فهو موقف التحقيق والعرفان والترقي في مقامات الاحسان . ومداره على ثلاث مقدمات ، تتبعها ثلاثة أمور مهمات ، ينطلق كل منها عن ثلاثة أصول ، ترتبط بكمال التخلّي ، وبساط التحلّي ، وموارد التجلّي .

وكأن الشيخ في هذا الكتاب يناقش ثلاثة جوانب من حياة الانسان : ماضيه ، ويوضح فيه واجب التوبة وضرورتها وكيفيتها ، وما يتاب عنه ومتى يتاب وكيف يتاب .

وحاضره ، ويبين هنا معنى الاستقامة وطريقها •

ومستقبله ، حين تتم التوبة ، وتتحقق التقوى ، وتتأكد الاستقامة ، فيصير القلب مهيئاً لتلقي المعرفة اللدنية — بفضل الله سبحانه •

وهو يجمل هذا كله في كلمات ثلاث :

التخلي — عن موبقات الماضي وذنوبه وآثامه •

والتحلي — في الحاضر بالأخلاق الحميدة والسلوك الرشيد القويم •

ثم التجلي — أي المعرفة الحقيقية بموقع الربوبية من الوجود ، وأنه :

« ليس على الحقيقة إلا الله » •

* * *

والأستاذ العالم الخبير لا يلقي كلماته على عواهنها ، ولا يقدم نصحه وإرشاده لأي كان • بل هو يحدد — بجلاء — أن مرماه علاج القلوب ، بالمعنى الصوفي المعروف• فما دام « القلب أساس الخير والشر، وموته وحياته مفتاح النفع والضر» كما يقول ، فلا بد من فحص القلوب وتمييزها حتى تسير على بينة من أمرها وهدى من ربها • وهو يطرح القلب الصحيح المعافى من حسبانه ، إذ « صاحبه ينطق بالحكمة وينهض في كل ملمة » • كما يسقط القلب الذي لا حياة فيه إذ « لايقبل التذكير والتنبيه » • ويوجه اهتمامه كله إلى « القلب المريض » الذي تتصارع فيه الحياة والموت — « وهو الذي يقصد بالمداواة ويرصد بالمعاناة •• رجاء استقامة حياته ، أو توقيف العلة حتى لا تؤدي لماته •• » •

وكأي خبير عارف يقسم القلوب المريضة إلى ثلاثة :

* قلب تكون الحياة فيه أقوى من المرض — وهو أسهلها علاجاً .

* وقلب يغلب المرض فيه الحياة — وهذا من العوارض المخيفة .

* وقلب تتكافأ فيه الصحة والسقم — وهو أصعبها علاجاً .

ثم يخلص إلى كيفية تعرف العـلة ووجودها أو عدمها ، ويقرر أن القلب الساذج الذي لم تدخله علة سهل التعالج « بخلاف الذي سقم بعد صحته ورجع بعد عودته .. لكمون الضرر فيه ، وأنسه بما يقتضيه » حتى يبلغ — بعد هذه المقدمة — إلى ما يرمي إليه ، وهو :

« علاج القلب المؤثر لهواه ، المعرض عن مولاه .. إذاما كانت فيه حياة » .

* * *

كان زرّوق في السابعة والثلاثين من عمره يوم أنهى تأليف هذا الكتاب ، يوم الرابع والعشرين من شهر شوال سنة ٨٨٣ هـ . بمدينــة « بجايــة » من بلاد الجزائر .

كان في قمة نشاطه العقلي وتوقد ذهنه إذن ، بعد أن نهل في صباه وشبابه من معارف « فاس » و « القيروان » و « القاهرة » و « مكة » و « المدينة » . وكان اتخذ من « بجاية » مستقراً له ومقاماً ، وصار له أتباع ومريدون بعــد خصومته مع بعض فقهاء « فاس » وبعض علمائها .

ويأتي هذا الكتاب الفريد في مرحلة وسطى من بين مؤلفاته ، وكانت سبقته مؤلفات أخرى لزرّوق وشروح لبعض الكتب ، أهمها مؤلفه الشهير « قواعد التصوف » الذي فرغ منه في السنة السابقة لتاريخ تأليف « الإعانة » — أي سنة ٨٨٢ هـ . وإذا كانت ملاحظة الدقة والترتيب واضحة في « القواعد » فإن « الإعانة » يفوقه دقة وتسلسلاً ، ويبزّه لغة ولفظاً ، وليس لنا أن نقارن « نظامية » الأخير بغير كتاب أستاذ زرّوق في « القاهرة » — أحمد بن عقبة الحضرمي — المعنون « صدور المراتب ونيل المراغب » الذي شرحه زرّوق بعد تأليف «الإعانة» بسنوات ثلاث — أعني سنة ٨٨٧ هـ . وهو عجيب في بابه .

وإذا كانت الغاية من تأليف « الإعانة » تبدو مناقشة علمية لما سبق ذكره ، مما يتضح في ثنايا الكتاب ، فليس مستبعداً أن يكون في الأساس دليلاً مرشداً للسالك — من أتباع زروق — في حياته الباطنة ، مثلما كان « قواعد التصوف » هادياً له في حياته الظاهرة من قبل . وهذا ما جعل بعض النساخ يعنون الكتاب باسم : « تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول »(١) خالطاً بينه وبين « تأسيس القواعد » الذي يشبه « قواعد التصوف » شبهاً كبيراً في مادته وأسلوبه ، حتى ليكاد يكون هو هو أو نسخة مختصرة له(٢) .

* * *

كان الاعتماد في إخراج هذا الأثر على نسختين خطيتين جيدتين :
الأولى توجد في مكتبة الرباط العامة للوثائق والمخطوطات ، برقم ق/٥٥٥

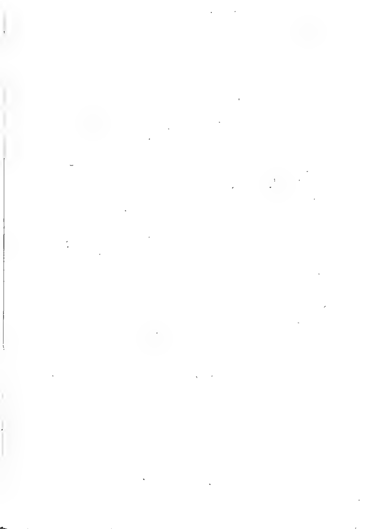
(١) مخطوط « الاعانة » — باريس (المكتبة الوطنية) ١١٢/١٣٨٠ و ٢/٣٢٩ .
(٢) يذكر حاجي خليفة في « كشف الظنون » ٣٣٣/١ كتاب « تأسيس القواعد » لزروق (ويقصد « قواعد التصوف ») — وهو يوجد بهذا العنوان في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم : ٥٤٧٩ ،

ضمن مجموع من صفحة ٢٨٧ إلى صفحة ٣٢٣ — وهي المشار إليها بحرف (ق) عند المقارنات .

والثانية موجودة بالمكتبة ذاتها كذلك تحت رقم د/١٢٥٤ — وهي المشار إليها بحرف (د) .

* * *


كتاب الإعانة



بسم الله الرحمن الرحيم

يقول المعترف بذنوبه وتقصيره ، الراجي فضل مولاه وإحسانه في جميع أموره ، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي ، ثم الفاسي ، شهر بزرّوق ــ غفر الله ذنبه ، وستر عيبه ، وأصلح قلبه :

الحمد لله المالك الوهّاب ، الرحيم التوّاب ، الهادي إلى الحق والصواب . العالم بالخفيات والجليات ، المطلع على الضمائر والنيات ، المحيط(١) بالكليات والجزئيات . الذي لا رادّ لقضائه ، ولا مانع لعطائه ، ولا نهاية لنعمه وآلائه . هدى وأضلّ ، ووفق وخذل ، وأنعم فأجزل . فله الحمد على منّته ، وله الشكر على نعمته ، ونسأله(٢) العافية برحمته . وصلواته المباركة التامة ، الجامعة الضامة (٣) ، الشاملة العامة ، على نبي الرحمة ، وتمام النعمة ، ومفتاح الخير والعصمة ــ سيدنا ومولانا محمد الأمين ، المرفّع على جميع العالمين . وعلى آله وأصحابه أجمعين . صلاة تملأ الوجود نماءً وعدداً ، وتتواتر على مرّ الدهور

---

(١) د : المحيط على

(٢) د : ونسأل الله

(٣) د ، ق : الطامة .

سرمـدا ، وتتصل بالتسليم عليـه(١) وعليهم دائماً أبداً • فتنعطف علينا بروح وريحان ، ويتصل إمدادها بأمن وأمان(٢) ، وتتجدد(٣) نفحاتها لدينا في جميع الأحيان• كل ذلك بفضل الله ورحمته ، وجوده ومنته • وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما قبل كل شيء ، ومعه ، وبعـده : فليس على الحقيقة(٤) إلا الله • من تمسك بحبله المتين ملك ، ومن حاد عن بابه الكريم هلك • إذ لا عاصم من أمر الله إلا من رحـم ، ولا هداية إلا لمن بحبـل جواره الكريم معتصم(٥) • فيصل الحقيقة بالشريعة ، بعد التنصل من كل قبيحة وشنيعة ، مؤثراً السلامة في طريقه ، قائماً بالحق على بساط تحقيقه ، بذهن سليم حاضر ، وقلب منيب لمولاه ناظر ، يضع كل شيء في محله ، ويحقق العلم والعمل بأصله • وإن هذا لعزيز في هذه الأزمنة ، ولا سيما في حق بعض الناس وفي بعض الأمكنة •

لكن منّة الله لا تتقيد بالزمان(٦) ، ولا يمنعها وجود الدفع(٧) في المكان • فثق بمولاك كفيلاً ، واتخذه وكيلا • فإنه الذي(٨) لا يخيب من قصده ، ولا يهمل من التجأ إليه واعتمده • ومفاتيح الخير في التزام اللجوء إليه ، وأساس الأمور وجود الاعتماد عليه • قال تعالى : « ومن يتوكـّل على الله فهو حسبه » — أي كافيه وواقيه وناصره • وقال عزّ من قائل : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء » — الآية • وقال عز من قائل : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » • قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إذا سألتم الله فأعظموا المسألة » • قالوا : « إذن نكثر يا رسول الله » • قال : « الله أكثر » — أي أكثر

(١) عليه — ساقطة في د •
(٢) ق : وإيمان •
(٣) د : ونجـد •
(٤) على الحقيقة — ساقطة في د •
(٥) د : يعتصم •
(٦) د : بالازمان •
(٧) د : الدوافع •
(٨) الذي — ساقطة في د •

إجابة[1] • وقال (صلوات الله وسلامه عليه) : « من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة • ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة • وما يسأل الله أحب إليه من أن يسأل العافية في الدنيا والآخرة » الحديث• وقال (عليه السلام) : « من لم يسأل الله يغضب عليه » • وفي معنى ذلك يقول قائلهم

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

تنبيـــه :

القلب أساس الخير والشر ، وحياته وموته مفتاح النفع والضر • فمن لاحياة لقلبه ، فلا حيلة في دفعه وجلبه • وكل قلب حلّته الحياة ، دعته إلى النهوض عند المذاكرات •

والقلوب ثلاثة :

أولهـــا : قلب في حياتـه صحيح ، وفي خطابـه فصيح • فصاحبـه ينطق بالحكمة ، وينهض في كل ملمة • الثاني : قلب لا حياة فيه ، فهو لا يقبل التذكير ولا التنبيه ، فضلاً عن اتباعه الحق ، أو تأدبه مع الخلق • الثالث : قلب اعترته في حياتـه أمراض ، وصحبته في أحواله اعتراضات وأعراض • فعرض الأعراض[2] مما عرض ، وهو الذي يتألم عن ذكر ماله من مرض • وهو[3] الذي يقصد بالمداواة ، ويرصد بالمعافاة ، رجاء استقامة حياته ، أو توقيف العلة[4] حتى لا تؤدي لمماته •

وله في ذلك وجوه ثلاثة ، يترتب عليها نفي ما فيه وثباته : أولها : أن يكون الحياة غالبة عليه ، والمرض تابع ، وهذا أسهل الأمر قريب المواقع• الثاني : المرض غالب والحياة ضعيفة ، وهذا من العوارض المخيفة • الثالث : أن يتكافأ السقم

(١) أي أكثر اجابة ــ ساقطة في د •
(٢) فعرض الاعراض ــ ساقطة في د •
(٣) د : وهــذا •
(٤) د : أو توقيفاً للعلة •

والصحة بوجه يمكن تقوية أحدهما معه ، وهو كالذي قبله ، أو بوجه لا يمكن ذلك فيه ، وهو(1) العلة المعضلة .

رجـــوع :

ثم وجود العلة مع ثباتها(2) يظهر بأحد ثلاثة أمور ، ويتعرف بها الخفاء والظهور :

أولها : العرض البادي ، ووزانه من غرضنا أفعال الجوارح. الثاني : السبب الأصلي ، ووزانه حركات القلوب . الثالث : المواد الموصلة ، ووزانها ما تنحو إليه النفس وتجنح له بالاختيار . وذلك مجموع في كلام الشيخ الإمام العالم الرباني ، سيدي أبي الحسن الشاذلي (رضي الله عنه) حيث قال :

« عمى البصيرة في ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتصنع(3) بطاعة الله . والطمع في خلق الله . فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فهو عبد مفتر كذاب أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب » . انتهى .

وهو عين الحقيقة وفصل الخطاب .

تتميـــم :

دخول العلة على القلب الساذج سهل(4) التعالج ، بخلاف الذي سقم بعد صحته ، ورجع بعد عودته ، لكمون الغرة فيه وأنسه بما يقتضيه . ولذلك إذا صح تمكنت الحقيقة منه ، وانتفت الغرة عنه ، إذا صار على ضرر من النكس ، ومستشعراً وجود النقص في العكس . لكن ثباته أغرب ، وإن كان رجوعه أيسر

---

(1) د : وهذا .
(2) ق : ثم وجود الحياة وإثباتها .
(3) ق : والتمنع .
(4) ق : مسهل .

وأقرب ، إذ داعية الشر والخير[1] من الأسباب الواصلة ، كالقوة الدافعة والأخلاط الفاعلة . يتحرك الخلط فتجد الألم ، وتقابله القوة فيظهر كالعدم . فلا تأمن نفسك بحال ، ولا تغفل عن[2] حفظ ما حصل لك من الكمال . وجدد الإنابة والتوبة ، لتحفظ بها صحة الرجوع والأوبة . وعالج أمراضك بما تراه يبريها ، وذلك بأن تجلب لنفسك ما يزينها وتصرف ما يرديها . وبالله — سبحانه — التوفيق .

* * *

(1) ق : الخير والشر .
(2) د : على .

فصـــل

و(١) علاج القلب المؤثر لهواه ، المعرض عن مولاه ، إذا كانت فيه حياة ، بأن يحسّ بالسيئات والحسنات ، إما بالتذكير أو عند وجود التّكير(٢) وذلك بثلاثة أسباب ، هي مفاتيح الغلق(٣) والأبواب :

أولها :

حمية البدن بالتقلل من الطعـام ، على وجـه لا يخل بالفكرة ولا المنام . الثاني : استنشاق روائح الصدق بمخالطة أهله ، فإن لم يوجد الحيّ فأخبار من يعرف بمحله . الثالث : استعمال الدواء الدافع(٤) ، بتذكار المهالك والمقاطع . وهي ثلاثة في الجملة تذكر العبد أصله وفصله : أحدها : غربته في الدنيا حتى من نفسه . الثاني : مصرعه عند الموت ووحشته في رمسه . الثالث : موقفه بين يدي جبار السموات والأرض ، وفضيحته على رؤوس الخلق(٥) يوم العرض .

فبالتقلل يصفو قلبه ، وبمخالطة أهل الخير يشتاق لبّه(٦) ، وبالتذكار يعينه ربه . إذ أن الله يعين العبد على قدر نيته ، ويفتح له على قدر همته . وإنما عـلى العبد الاسباب ، وعلى الله فتح الأبواب .

(١) د : في علاج .
(٢) ق : التكبير .
(٣) د : الغلط .
(٤) د : النافع .
(٥) د : الخلائق .
(٦) ق : للبـه .

فإذا نفرت(1) النفس عن التذكـار ، وقصر القلب في وجوه الاستبصار - فتعمـد الأسباب المذكرة(2) ، وأقصد الأمور المقوية المفكرة : أولهـا : وجود الخلوة(3) مع الفراغ وإن بلا ذكر • الثاني : زيارة المقابر خليّا وإن بلا فكر • الثالث : لزوم الاستغفار وإن بلا حضور ، والصلاة على النبي(4) (صلى الله عليه وسلم) في جميع الأمور ، فإنه (صلوات الله وسلامه عليه) قد قال : « زوروا المقابر فإنها تذكر الآخرة » وقال (عليه السلام) : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقـه من حيث لا يحتسب » • وقال (عليه الصلاة والسلام) : « الصلاة عليّ نور في القلب ، ونور في القبر ، ونور على الصراط • وهي أمحق للذنوب من الماء البارد للنار » قاله أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) •

فإن تأبت نفسك على ذلك ، وامتنعت من هذه المسالك ، إما لثقـل الأمر عليها أو وجود شغل بالدنيا ، فاعلم أن الأول : آية الغباء(5) والخذلان ، ودليل ضعف اليقين والإيمان • والثاني : غلبة الهوى عليك ، والشغف بما هو قائم لديك • فلك في الأول علاجان : أحدهما : التحامل على الأمور المذكورة، وإشغال النفس بالامور المشكورة ، من غير التفات لفائدة هذا العمل ولاكماله ولا نظر لكثرته ولا استقلاله • فإن ذلك يلفتها(6) — شاءت أم أبت — ويذهلها عما عليه استقرت وربت • الثاني : تكرار العقائد المجردة عن البرهان ، الواضحة التبيان ، درساً وتلاوة ، حتى تتمكن صورتها في النفس ، فيتجرد(7) وجه المعتقد ويرتفع الوهم واللبس • فبذلك تنتعش القوى ، ويظهر من الحقيقة ما يندفع به الهوى -

(1) د : انفردت •

(2) ق : المذكورة •

(3) د : الخلوات •

(4) د : نبي اللـــه •

(5) د : الغيّ •

(6) د : يتلفهـا •

(7) ق : فيتجدد •

إذ لكل إنسان ــ وإن ضعف ــ لا بد من جزئية[1] يقوى فيها إيقانه إذا مسها التكرار تأكدت معانيها ولاحت مبانيها • فافهم •

وأما وجود الشغل وعدم الفراغ ، فعلة لا تسلم ولا تساغ[2] • لأنك إما أن تكون مشغولا بما فيه شائبة حق ، كطلب العلم ــ أو بما فيه لوازم صدق ، كالقيام بحق من يوجب[3] الحكم ــ أو بما فيه حظ عاجل ، أو فضل آجل • وكل ذلك لا ينافي تحصيل الفكر والتذكار ، لعدم استغراقه أجزاء الليل والنهار • وإن أمكنَ الاستغراق فهو ذاهب بالحقيقة إلى المستغرق فيه ، ولا يصح ثبوت الحق مع ما ينفيه •

لكن هنا[4] معالجات ثلاث : أولها أن تختلس من ساعات ليلك ونهارك ساعة تخلو فيهـا بنفسك ، وتنظر في يومك وأمسك ، وتلاحظ هجوم الموت ولوازم رمسك • الثاني أن لا يمكن ذلك لتمكن التعب السابق ، والشغب اللاحق ، فتختلس من الأيام يوماً في الجمعة أو يومين [وفي الشهر ثلاثاً ونحوها تجعلها عليك كالدين • الثالث أن يتعذر ذلك عليك ،][5] ولا تقدر عليه لغلبة ما لديك • فيكون مرة في السنة ، وليس وراءها حالة مستحسنة[6] ، لأن الله تعالى قد ذكرنا بالجمعة ونحوها ، وندبنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للتذكر في يومها ، بالترغيب في الإنصات ، وكثرة السلام عليه والصلاة • ورغبنا في صيام يوم من أيامها ، وجعـل التوقي في الأمور من[7] حقيقة أحكامهـا • فقال (صلوات الله وسلامه عليه) : « لا يجعل أحـدكم يوم صومه كيوم فطره » ــ الحـديث •

(1) ق : إذ كل إنسان لابد له من جزية •
(2) د : تصاغ •
(3) د : بما يوجه •
(4) ق : هما •
(5) ما بين قوسين [ ] ساقط في ق •
(6) د : حسنة •
(7) من ــ ساقطة في د •

وكـذلك رغب في صيام ثلاثة أيام من كـل شهر وفرض شهر رمضان وسنّ فيه الاعتكاف •

وبالجملة فالهمة حامل البدن • ومن له أدنى همة استعان بها على أمره حتى أنه لا يجد وقت فراغ إلا فرغ فيه لمراده وقام بما يمكنه في الحال • فإن كان متسبباً(١) قام بالذكر المذكور مع أسبابه ، وإن كان متجرداً جعل الذكر المذكور موضع اكتسابه • وإن كان طالب علـم جعله في تصرفاته ، إذ ليس طلب العلـم بمستغرق جميع أوقاته •

وأساس كل الخيرات ، وينبوع مجامع(٢) البر والبركات إنما هي أمور ثلاثة: أولها : الاستعانة بالله والاستغاثة به على بساط الفقر والمسكنة والذلة ، ولو في لحظة من لحظات الليل والنهار في الجمـلة • الثاني : تجديد العزم في(٣) العلل الدافعة عن المقصود بإفراد الهمم للمراد دون تردد ولا مهلة(٤) • الثالث : وجود الحزم في المبادرة للمطلوب بعد تحقيق المناط •

وهذه أمور يوجهها التوفيق ، ويدفعها الاشتغال بالتدقيق • لأن بساط التوفيق ــ الذي هو الصدق ــ يمنع من التشعب ، لتوقفه على الحق والحق في كل(٥) شخص باعتبار حاله ، شيء واحد يظهر في علومه وأعماله • وإذا ذكرت ذنوبك فاتبعها بالتفصيل ، واحذر في تفصيلها من الشغل بالتأصيل ، حتى تقصد لإزالتها ، وكذلك فاحذر الاقتصار عـلى الاعتراف بجملتها • واعلم أن تذكير النفس عـلى قدرها في التلبس واللبس(٦) ، فكل نفس كان ولوعهـا بالعلـم والحكمة فلا تذكّر بغيره ، وإلا(٧) كان لها منفراً ونقمة • وكل نفس غلب عليها

---

(١) ق : مسببا •
(٢) د : جميع •
(٣) ق : من •
(٤) ولا مهلة ــ ساقطة في د •
(٥) والحق ــ ساقطة في د • ق : والحق في حق كل شخص
(٦) ، واللبس ــ ساقطة في د •
(٧) د : وان •

الجهل البسيط ، فالوعظ تذكير وتنشيط • وكل نفس غلب عليها الجدل فقل أن تدفع(١) بشيء من الحيل • قال الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ــ الآية • وقال : « من اتخذ إلهه هواه فمن يهديه من بعد الله » ــ يعني انها لا تنفع فيها الحيل • وفي الخبر : « ما تعلم قوم الجدل إلا حرموا من العمل » ــ ويعني ، والله أعلم ، الجدل النفسي ، الذي هو إقامة الحجج لما يوافق الهوى حتى لا يسلم معه علم ولا عمل(٢) من دخوله فيه • ويتمكن من حقيقة صاحبه تمكناً لا يتفطن له معه ــ لغلبته عليه •

إذ أن الهوى إذا تمكن أثمر علماً على وفقه • ولذلك عزت الحيلة فيه حتى لقد قيل : « نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن » • وهذه الخصلة هي التي ترد السالك إلى خلف(٣) وإلى أسفل سافلين ، وتدع العالم في غمرة الغافلين • وما أظن أكثر الخلائق ــ بل جلهم ــ رجعوا بعد الوصول ، إلا من تضييع هذا الأصل المأمول(٤) • واعتبر هذا بقوله في (الحكم) : « من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الله الإمداد وأوجب الإبعاد(٥) • فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ، ولو لم يكن إلا منع المزيد • وقد تقام مقام البعد من حيث لا تدري(٦) ، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد » •

خاتمـــة :

قد عرفت ــ أيها الأخ ــ طريق التوبة ، ووجه الرجوع بعد الأوبة • فإذا وقفت ببابها ــ وهو الندم على ما فات ــ فحقق(٧) وجودها بالعمل على مقتضاها

---

(١) ق : ترفـع •
(٢) ولا عمل ــ ساقطة في د •
(٣) د : ذلك •
(٤) د : المعمول • ق : المسؤول •
(٥) د : البعاد •
(٦) د : ترى •
(٧) ق : فحقوق •

على الثبات • عالماً أن التوبة منك إليه توبة منه عليك • فإن نقضتها بعد العزم فهي عائدة عليك[1] ، وإن استمرت عليك فهي كرامته لديك ، لأن فعلك تعرض النفحات رحمته وثباتك من وجود منته • ولهذا لزم العود إلى التوبة كلما عاد الذنب ، إذ أوصاف العبد لا تقضي على أوصاف الرب • وقد وعد بفضله ، كما توعد بعدله • وليس أحدهما بأولى من الآخر في محله • فالفرار منه جناية ، والبدار إليه هداية ، والتوفيق منه[2] عناية • ولئن كان النقص والعود عظيماً[3] ، فالرجوع إلى كرمه أعظم من العظيم •

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » • وقال (عليه السلام) : « إن الله يحب كل مفتر[4] تواب » — يعني كثير الذنب ، كثير التوبة • وقيل للحسن (رضي الله عنه) : « الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب •• إلى متى ؟ » قال : « ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين » [5] • وفي (الحكم) : « إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يوئسك من حصول الاستقامة مع ربك • فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك • ومن استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه عن[6] وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية[7] • وكان الله على كل شيء مقتدراً » •

فافهم — أيها الاخ — وتفهّم ، وتأمل ، وتدبر في رجوعك من حسن ظن بالله[8] ، وفي إباقك من الإعراض والاستغناء ، يحملك ذلك على الانحياش إليه كيفما كنت ، والسلام •

---

(1) د : اليك •
(2) منه — ساقطة في ق •
(3) عظيم — في د ، ق •
(4) ق : مفتن • وعلق ناسخ د بكلمة (كذا) فوق الكلمة •
(5) د : المؤمن •
(6) ق : من •
(7) ق : قدرة اللهيئة •
(8) د : حسن الظن بمولاك •

تحقيق العزيمة بالعمل ، والقيام بدواعي بلوغ الأمل •وذلك بإقامة ثلاثة مواقف ، أولها مرتبة التقوى وآخرها بساط كشف المعارف •

الموقف الأول :

من مواقف الطريق ، تحقيق التوبة بالتحقيق • وهو دائر على ثلاثة أقطاب ، هي كالعمد والأبواب :

أحدها : تحقيق النية بتصميم العزم على عدم العود لما خرج عنه جملة عند الابتداء وتفصيلا في الدوام • إذ لا يلزم عند بدء(1) التوبة تذكار تفاصيل ما وقعت التوبة(2) منه لمشقته • لكن تتبعه بأحكامها بعد ذلك •

ودواعي الثبات في هذا العزم ثلاثة أشياء :

أولها : أن يفر من المحل الذي يخشى من عوده جملة ، وإلا ففي الوقت الذي يخشى ذلك فيه أو عند ظهور أول أسبابه • الثاني : إتهام النفس بوجود بقايا النزوع إليه حتى تكون على حذر منه ، وإلا وقعت فيه قبل الشعور بسببه أو وقته. الثالث : اشغال(3) النفس عنه بما يقابله ،حسًّا في الحسيات ومعنى في المعنويات ، دون تعريج عليه ، لأن الوجه الذي خرج عنه لأجله أولى من الوجه(4) الذي خرج عليه(5) • [ولذلك قيل : يتعيّن عليه كلما ذكر ذنبه تجديد الندم عليه](6) فافهم•

ودواعي الرجوع إليه(7) ثلاثة :

أحدها :

الغفلة عن الندم ، أو التندم ، عند تذكاره ، لأنه يورثك(8) ذكره.

(1) د : جزم •
(2) د : تفاصيلها ونعت التوبة •
(3) د : أشغال •
(4) د : لا من الوجه •
(5) ما بين قوسين ساقط في ق •
(6) د : به •
(7) د : عليه •
(8) د : يؤثر •

ـ دون ذلك ـ أن ترتسم(١) صورته في النفس حتى تجد خلسة [من الغفلة](٢) لتمكينه عند اشتغال(٣) القلب بما هو مستغرق له كالعلوم والأعمال .

الثاني :

المسامحة بإعادة الطرق(٤) لمحله أو سببه أو وقته ، ولو في لحظة ، وإن كانت على وجه من الاعتبار ، إلا مع تكرار الندم وتحقيق الأنفة ـ وهي(٥) أتم من الندم ، لأن حديث العداوة قد يثير رقة(٦) وحلاوة ، لا سيما مع تجدد محل الأذى وهو نفس الفعل .

الثالث :

الثقة بالنفس في عزمها ، وحسن الظن بها في حالها ، ومراجعة محل السبب لاختبارها(٧) ـ ولو بإخطار ذلك على البال دون تأمل . فإنه بمثابة(٨) رشاش الماء للنار الخامدة ، لا يزيدها إلا اشتعالا . والنفس نار كامنة عند ظهور الحق عليها ، لا يأمنها(٩) إلا غبي ، ولا يحذرها إلا عاقل . فاعلم ذلك .

وقد قال الجنيد (رحمه الله) : « لا تركن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك(١٠) في طاعة ربك » . وأنشدوا (١١) :

توّق نفسك لا تأمن غوائلها   فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

تنبيه :

قد لا تشمل(١٢) التوبة ، فيكون الحكم في متعلقها على حسب حالها

---

(١) د : ارتسام .
(٢) ما بين قوسين ساقط في ق .
(٣) د : اشغال عوالم .
(٤) في النسختين : الطرق .
(٥) د : وهو .
(٦) د : شرا .
(٧) ق : لاختيارها .
(٨) ق : فانه يشابه .
(٩) د : لا يأمن لها .
(١٠) لك ـ ساقطة في د .
(١١) د : وأنشدوا في ذلك .
(١٢) ق : تشتمل .

ومحلها(١) • وقد يختل النظام بالعود فيعود الحكم ثانياً كما كان أولاً • ويلزم التحفظ الآن أكثر والبحث(٢) عن وجه الرجوع حتى يحسم • إذ لا يخفى السبب بعد الأوبة ــ إلا لهوى غالب متمكن بالجدل • فإن عارض الشيطان بقوله : « أي فائدة لتوبة يعقبها عود ؟ » قيل له : « كما اتخذنا العود إلى الذنب حرفة تتخذ التوبة حرفة • ولعل الموت يأتي والصدفة(٣) تصادف » فإذا علل(٤) برهن العزم ردّ بأن المطلوب وجود الصور لا ما ليس في مقدور البشر • فإن قابل بأنه مقدور فأعرض عنه ، لوجود العمل(٥) ، عملاً على قول سفيان : « ترك الذنوب أيسر من طلب التوبة » • والله أعلم •

تتميـــم

القلب محل عجز البشر • فلا أعون عليه من دوام اللجوء إلى الله ، في طهارته أولا ، ثم في ثباته آخراً • فلذلك كان عليه السلام يكثر من قوله : « يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » • ــ وهو ذكر هذا القطب ودعاؤه(٦) ، وكذلك « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ــ وتكرر وتراً بآخر كل سجدة• وكذا عند(٧) الاستغفار ونحوه • وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل •

القطب الثاني من الموقف الأول : رد المظالـم واستدراك ما ضيع أول • وهو واجب لتحقيق العزيمة ، ورد الهزيمة(٨) ودفع الهضيمة • ومرجعه النظر(٩) في ما فرط ، باعتبار ما ثبت منـه أو سقط • فاعلم ان الواقع من المآثم دائر بـين

ثلاثة أوجه ومعالم :

---

(١) ساقطة من د •
(٢) د : مع البحث •
(٣) د : أو الصيغة •
(٤) ق : علل • ساقطة في د •
(٥) ساقطة في د •
(٦) د : ودعواه •
(٧) في د ، ق : سيد •
(٨) ق : الفريضة •
(٩) د : للنظر •

أولها : سيئات مجـردة من التضييع والظلمات ، ولا كفـارة لها إلا العزم والندم عـلى ما فات والحزم(١) في المستأنف بـدلاً من الاهمال في السالف • وعلامة الصدق في ذلك ثلاثة [أشياء يعرفها ذوو القلوب الأحياء](٢) أحدها : وجود الحلاوة في الترك بدلاً من الاستلذاذ بالفكر(٣) • الثاني : نسيان الخلق لذلك الذنب ، وتسخيرهم أو تسليطهم تذكيراً بمنة(٤) الرب • الثالث : العمل في أسباب الثبات ، والتحفظ من النكص بكل الجهـات • **وعلامة بقاياه في النفس** ، ثلاثة منها يدخل الرجوع واللبس : أحدها : الاستئناس بذكره • ولو على سبيل الذم والتنفير • الثاني : منافرة(٥) النفس في مقاماته(٦) أو نتائجه تسويفاً • ولو بالسماح في أول خاطر أو هاجس ثقيلاً كان أو خفيفاً • الثالث : التشوف لمن بلي به ولو بترحم ، والتوقف عند دواعي النظر فيه دون تقحم •

وميراث هذا الترك ثلاثة أشياء كلها خير في الممات والمحيا(٧) :

أولها :

وجـود لـذة العبـادة ــ كما أشار إليـه رسول الله (صلى الله عليـه وسلم) بقوله : « من غض بصره لله رزقه الله عبادة(٨) يجد لذتها » ــ الحديث •

الثاني :

تحقيق الإرادة وهو بساط الرحمـة والإفادة • فقد قيل : إذا اعتقـدت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً » ــ انتهى ، وهو عجيب •

---

(١) د : والجزم •
(٢) ما بين قوسين ساقط في ق •
(٣) د : بالفرك •
(٤) د : لمنة •
(٥) د : مصابرة •
(٦) د : مقدماته •
(٧) ق : الاحياء •
(٨) د : حلاوة •

الثالث :

وجود النجـاة المصحوب بطيب الحيـاة • قال الله تعـالى : « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ــ إلى غير ذلك من الآيات •

وميراث المعصية والمقام عليها ثلاثة تعرض مما لديها : أولها : وجود الذلة في النفس • الثاني : ظهور الكشفة والنكس • الثالث : بخس الحظ والوكس • وقد نبه الحق على ذلك في كتابه العزيز ، ذي الحكمة البالغة واللفظ الوجيز ، فقال تعالى : « إنه لا يفلح الظالمون » • وقال عز من قائل : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » • وقال جلّ وعلا : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » • وقال علي (كرم الله وجهه) : « من أراد الغنى بغير مال والعز بغير عشيرة فليتحول من ذل المعصية إلى عز الطاعة » •

نكتـــة

غالب الذنوب التي بين العبد وبين ربه ، ترجع للشهوات المانعة من قربه(١) • وتمكنها من النفس ، يوجب النزوع إليها دون لبس • فإذا عرضت(٢) في الخاطر فليعرض عنها دون مقابلة ولا مواجهة لما توجه منها ، لأن مقابلة الخاطر برده ، توجب تمكينه دون صده(٣) • وليشغل الوقت حينئذ بالنقيض(٤) ، مما ليس فيه تصريح ولا تعريض • ولذا أمرنا بالذكر ، عند اعتراض الوسواس ، لا بالفكر • وقد جاء : أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس • فإذا قوبل(٥) الخاطر بهـذه المقابلة ، كانت الحقيقـة له(٦) واصلة ، وبتكرارها فيـه(٧) متمكنة حاصلة • ولهـذا قالوا : « [من ترك شهوة سبع

(١) د : قوله •
(٢) ق : عزمت •
(٣) د : يوجه ضده •
(٤) ق : بالقبض •
(٥) د : قابـل •
(٦) له ــ ساقطة في ق •
(٧) د : عليـه •

مرات](1) لم يبتل بها • والله(2) أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت لأجله » • فاعرف ذلك واعمل عليه ، فإنه صحيح ، مجرب ، عجيب • والله يقول الحق وهو يهدي السبيل •

فصل في المعلم الثاني وما فيه من الوجوه والمعاني • وهو استدراك الحقوق الفائتة بالوجوه الصحيحة الثابتة • ولا يخلو الأمر فيها من ثلاثة أوجه ، لكل منها حكم وتوجه :

أولها :

أن تكون محصورة العدد محققة الترتيب(3) في الذمة ، والقيام بهذا(4) واجب وأكبر(5) مهمة • لكن على وجه يقطع عنها(6) وكيفية لا تخل بما يأتي منها • وذلك بأن يأخذ ــ بأقصى المقدور ــ الوسط ، وإن كان غيره يستحب ويغتبط • فرأس مال التاجر البلاغ ، وكل ما يخل به فليس يستساغ •

الثاني :

أن تكون محققة الحكم غير محصورة ، فالأخذ بأحوط العددين هو(7) الحالة المشكورة • لكن من غير إيغال(8) في الاحتياط بأول وهلة ، بل بعد الفراغ من أوله • بمهلة أولا مهلة • لأن العزم على الاستقصاء يوجب عجز النفس عن الإحصاء • والحيلة عليها أولى من الرجوع إليها •

الثالث :

أن تكون مشكوكة الحكم والعدد ، [أو غير مشكوكة العدد](9) • ولا يخلو : إما أن يستند الشاك فيها إلى أصل معتبر ، أو لا يستند لذلك بل لما

(1) ما بين قوسين ساقط في ق •
(2) د : لأن •
(3) د : الترتب •
(4) ق : بهذه •
(5) د : وأعظم •
(6) د : فيها •
(7) د : يزهى •
(8) ق : أن يقال •
(9) ما بين قوسين ساقط في د •

فيه نظر • فالاول ملحوظ في الحكم المتبع(١) والثاني ملحوظ في بساط الورع • [لكن الورع](٢) بعد تمكن الديانة ، وانصراف ما يتعلق به وجه الخيانة • فلا ينبغي للمبتدىء أن يتعلق به في هذا الباب ، إلا بعد تحقيق النقل(٣) والاجتناب ، لئلا يوغل في الدين ، فيؤديه الأمر لمفارقة(٤) المهتدين • وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه » • وقال (عليه السلام): « خير الدين(٥) أيسره » • ــ الحديث •

تنبيهـــات

الأول :

من اقتصر عـلى أقـل(٦) ما يقـدر عليه ، دخـل لأقصى ما ينتهي إليه • لأن « المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » • واختلاف الأحوال يقضي باختلاف الأحكام • فلا ينبغي أن يغترّ بما يذكر من حزم أولي العـزم في قضاء الأشهر العديدة في اليوم ولا تقتصر على ما يقتضي(٧) العبث واللوم • بل تنظر لأقـل ما تراه وسطاً في حقك فتأخذ به دون تقصير ، مع اعتبار أقوال العلماء فيه ، فهم القدوة ، وبالله الحول والقوة •

الثاني :

ماتحقق في الذمة ، أو ظن تحققه ، أو شك بعلامة • فلا براءة منه إلا بالإتيان به وجوباً في الأولين وورعاً في الأخير • ومن جعل نصب(٨) عينيه أقصى ما يريده قل أن يفعل ما يريده • وشك بلا علامة وسوسة ــ فصلاة العمر دون مستند ظاهر الاعتبار من ذلك • قال لنا بعض الشيوخ : « ونص في (الذخيرة) على منع العمل به » والله أعلم •

---

(١) المتبع ــ ساقطة في ق •
(٢) ما بين قوسين ساقط في د •
(٣) د : الشغل •
(٤) لمفارقة ــ ساقطة في د •
(٥) د : دينكم •
(٦) أقل ــ ساقطة في د •
(٧) ما يقتضي ــ ساقطة في ق •
(٨) ق : بــين •

الثالث :

الحقوق المالية كالحقوق البدنية ، بل أعظم . فواجب الزكاة والكفارة لازم[1] ، والتحري فيه أهم من التحري في البدنيات ، لتسلط النفس على القيام بالأول وتكاسلها عن الأخير . ولذلك كان أكثر ورع السلف في المال أكثر من الماء . والله أعلم .

الرابع :

لا يجوز عتق من أحاط الدين بماله . ولا يقبل الله نافلة ممن عليه فريضة . فأهم الأمور القيام بالحقوق الواجبة ثم النوافل . وقد قيل : « من كانت النوافل أهم عليه من الفرائض فهو مخدوع » وقيل : « هلاك الخلق في حرفين : اشتغال بنافلة وإهمال فريضة ، وعمل الجوارح بلا مواطأة [القلب . وفي (الحكم) : « من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل][2] عن القيام بحقوق الواجبات » . انتهى . وهو الداء العضال فلا يكن منك له إغفال .

الخامس :

حصر العدد في القضاء معين عليه ، لتشوف النفس لما[3] ينتهي إليه . وجعله موقوفاً على وجه واحد يقضي بسآمتها فيه[4] . فليكن القيام بعدد أدنى ، ثم وسط، ثم أعلى، لتجول في ما تقتضيه[5] وتجد الراحة بالتطوير والزيادة، والقوة على التحسين والاجادة .

السادس :

ضعف الباعث يدعو لتكاسل النفس عن الانبعاث ، وتقاصرها عن الدوام والثبات . فإذا وجدت ذلك — ولا معين — فذكرها وعظها ، ثم انهض نهضة الغضبان تجد النشاط أبداً . وإن دار الأمر بين ترك القضاء والنفل فالنفل

(1) د : والكفارات لازم .
(2) ما بين قوسين ساقط في ق .
(3) د : لما .
(4) فيه — ساقطة في د.
(5) د : ما تقتفيه .

المتروك . فإن دعت لفعل الثاني أو ترك الجميع فبعض الشر أهون من بعض . وبذلك كان يفتي شيخنا القوري (رحمه الله) ــ والله أعلم .

السابع :

قد تدهش النفس من اتساع الحقوق عليها مع استشعار ضعفها فتروم الكسل عن القيام بواجب الوقت والرجوع عن سببه ــ وهو التوبة . وعلاجها في ذلك بالأخذ بالخلاف المؤدي إلى الترفق من غير لحوق إثم ، ولا لتغيير لحكم . وأكثر ما يقع(١) ذلك من قبل الكفارات . وذلك من الجهل بما تجب فيه، أو التشدد(٢) في حكمه . فلا تضيق على نفسك مخافة اتساعها ، ولا توسع عليها مخافة تمكنها . وبالله التوفيق .

وميراث العمل بما ذكر ثلاثة أمور لمن يعتبر :

أولها : تسهيل الاستقامة في المستقبل . الثاني : إفراد القلب عن الشغل بخلاف الحق . الثالث الوقوف في محل الصدق ــ وهو محل تنوير القلب والقالب(٣) وعلو الهمة ودفع الشرور وتيسير الأمور . والله أعلم .

وميراث إهماله قصور القلب عن كماله ، [ورجوع البدن لحاله](٤) ، وفقدان الصدق والحلاوة في أعماله . ومفاتيح الإخلال به ثلاثة عن كل منتبه :

أولها : الميل إلى الرخص المتعلقة بأحكامه . الثاني : التشديد في إقامته على أتم نظامه . الثالث : الإكثار والاستعجال ، وبه أساس الكسل والإبطال . ومواد القيام عليه الأخذ بما يقيمه ويؤدي إليه ــ مثل الثاني ــ والعزم ، والاقتصاد(٥) والحزم . بأن لا يدخل عليه تأويل ولا يعارضه بتهويل(٦) . والاستعانة بالله واللجوء إليه هي الأساس الأعظم ، والبنيان(٧) المحكم . والله سبحانه أعلم .

---

(١) د : ما يقع لها .
(٢) د : والتشديد .
(٣) د : في الغالب .
(٤) ما بين قوسين ساقط في د .
(٥) د : والاقتضاء .
(٦) في د ، ق : بتأويل .
(٧) ق : والتبيان .

فصل في المعلم الثالث في مظالم العباد ومافي ردها من وجوه السداد .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « الظلم ظلمات يوم القيامة » . وقال (صلوات الله وسلامه عليه) : « من كان لأخيه قبله مظلمة فليتحلله قبل أن لا دينار ولا درهم » — الحديث . وقال بعض العلماء : « الذنوب ثلاثة : ذنب لا يغفره الله ، وهو الشرك . وذنب لا يتركه الله ، وهو مظالم العباد . وذنب لا يعبأ الله به ، وهو سائر السيئات » — يعني[1] انه يغفرها لمن استغفر ولمن شاء ولمن دون ذلك ، فافهم .

والناس ثلاثة — بالنسبة إلى ظلمك — يتعين عليك ردّ مظلمة كل واحد على حسب علمك :

الأول :

رجـــل ظلمتـــــه في نفسه بقتــــل أو جـــراح . وحقك التعريض بالقصاص وترك[2] الجناح . فإن عزت النفس ولم تهن ، أو انعدم ولي الأمر[3] ولم يكن ، فخزائن الكرم[4] مملوّة ، واللجوء إلى الله في إرضائه من وجوه[5] القـــوة . لا سيما مـــع التسبب في الوداد ، وتعـــريض النفس للمتلفـــات في الله ، كالجهاد .

الثاني :

رجـــل ظلمته في ماله بأخـــذه غصباً أو سرقـــة أو خيانـــة في استعماله . وحقك رد مثـــل الـــذي أخذت — إن وجـــدت . وإلا فالتحلل — إن أمكن والرجوع[6] إلى الله — إن فقدت[7] بأعمال أسباب إرضائه ، من خدمته واحترامه

---

(1) د : بمعنى .
(2) د : أو ترك .
(3) د : ولي الدم .
(4) د : فخزائن الله .
(5) ق : وجود .
(6) د : والرجعى .
(7) د : نفذت .

وإعطائه • فإن فات أو لم يتعين ، فالتصدّق بمقداره قد تعين • والاحتياط في التقدير(١) هاهنا أهم ، والأخذ بالاحتياط أحسن وأتم •

الثالث : رجل ظلمته في عرضه بإلحاق ما يقتضي وجود نقصه وغمضه(٢)• فلا يخلو الواقع والصادر ، من **ثلاثة أوجه ومصادر :**

أحدها :

أن يكون ذلك مما(٣) يلحق ضرراً ، كالسعاية والنميمة ، والشهادة عليه بصفة ذميمة • فيتعين عليك تكذيب نفسك عند من قلت له ذلك والرجوع عن الشهـادة ــ إن كانت زوراً ــ كـذلك • إذ ليس لحوق الوصم به بأولى منك ، ولا وجه للسماح في ما صدر في ذلك عنك • هذا مع استحلاله مما فعلت ، وإظهارك الرجوع عما قلت وتقلت •

الثاني :

أن يكون ذلك مما يلحق معرة ، كالزنا بوليته ــ ولو مرة • وهذه بلية ، الله أولى بالعذر فيها • وواجبك تصحيح(٤) العزم في التنصل منها ، لأن إعلامه قذف للمزني بها ، وفضيحة لنفسك في ذنبها ، وتعريض له للإذاية إن سكت ، أو إهلاكه(٥) إن أغار وما ثبت • وكل ذلك حرام ، ومخل بوجود النظام • مع وجود الخلاف في الزنا ، وهل هو من حق الله أو من حق المخلوقات •

وثالثها :

الفرج المملوك(٦) من العباد ، فيعجل زانيه بما عسى أن يكون كفارة له ،

---

(١) ق : بالتقدير •
(٢) د : وعرضه •
(٣) د : بما •
(٤) د : بصحيح •
(٥) د : وهلاكه •
(٦) ق : الملوط •

كالعتق ونحوه من المواد • (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) : « من أعتق نسمة أعتق الله بكل عضو منها(١) عضواً منه — حتى الفرج بالفرج » — الحديث•

الثالث :

أن يكون ذلك بوجود الغيبة ، وذكر ما فيه تنقيص أو ريبة • والتحلل فيه واجب ، وإن لم تلحق به منه ضرورة ، وإلا فإبداله بالثناء والاستغفار والخدمة فعلة مشكورة • وقد قيل : إن التحلل منه غير جائز كالتحليل ، وقيل : مباح إذا تعلق(٢) بأمر وقيل(٣) — إن ذكرها بنقلها للبهتان مع اشتراط التعيين والبيان • فصحح عقدك ، وجدد عهدك ، وأكثر من الاستغفار والتحفظ جهدك • ثم الله أولى بالعذر في ذلك ، والكافي لما هنالك • والسلام •

فوائــــد

أولها :

في«الحلية»(٤)عن ميمون بن مهران — أحد فضلاء أكابر التابعين : أن من استغفر لمظلومه دبر كل صلاة خمس مرات فقد أدى ماعليه • وهذا في باب الغيبة، لا في ما له عين • والله أعلم •

الثانية :

اختلف في جواز الاحلال ممن(٥) له حق • فقيل : مندوب — ورجحه جماعة ، وعليه العمل ، لحديث ابن ضمضم وغيره • وقيل : لا ، مطلقاً لتعلق

---

(١) د : بها كل عضو منه •
(٢) د : تحلل •
(٣) وقليل ، وقد يقال ان ذكرها •
(٤) د : الحيلة •
(٥) د : فيمن •

حق الله به ، إذ لعله أراد عقوبته(١) ، فيكون إحلالك اختياراً(٢) . وثالثها قول مالك (رحمه الله تعالى): « إن كان حقاً لاظلم فيه جاز . وإن كان عن ظلم فلا ». والله أعلم .

الثالثة :

ينبغي التعريض بالبقاء(٣) على الحق ـ إن رجي الزجر به ـ وبالتصريح(٤) بالعفو ـ إن علم النفع وإظهار التمسك بالحقوق . وإن كان العفو في نفس الأمر أبقى للحرمة وزجراً لمن يزجره ذلك . فقد قال رجل لابن سيرين : « قد اغتبتك . فاجعلني في حل » قال : « ما يكون لابن سيرين أن يحل شيئاً حرمه الله » وما في حديث ابن ضمضم شيء بينه وبين ربه . قالوا : « ولا يكون إلا على الماضي : إذ لا يملك المستقبل » والله أعلم .

الرابعة :

الوالد والوالدة في الحقوق أجانب . فما أخذ لهما الولد وجب عليه فيه ما يجب في مال الأجانب(٥) ـ إن لم يظهر منهما ما يدل على الرضا . وكل ما توقى من علمهما به عند الأخذ(٦) فهو كمال الغير ، بخلافهما في ماله ، إلا فيما اختصت به ذاته من العرض ونحوه ـ فهو كالأجنبي منهما . فافهم .

الغامسة :

إفشاء السر خيانة تتنزل منزلة الغيبة(٧) في محل ، ومنزلة النميمة في محل ، ومنزلة القذف في محل . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): « إذا حدثك الرجل ثم التفت فهي أمانة » الحديث .

---

(١) د : عقوبة .
(٢) د : امتيازاً .
(٣) ق : التعريض بالقاء .
(٤) ق : والتصريح .
(٥) د : الأجنبي .
(٦) د : عند الغير .
(٧) الغيبة ـ ساقطة في ق .

السادسة :

من صدق الله في رد المظالم جعل الله له[1] مخرجاً ، كما جرب غير مرة . فليس الجزع فيها إلا من ضعف الإيمان وقوة التوهم والشفقة على النفس ، إلا أن تقوى في النفس التقية . فلا تلق بيدك إلى التهلكة . والله أعلم .

السابعة :

ظلم الذمي ، في ماله أو عرضه أو أهله أو بدنه ، كظلم المسلم ، لأن له ذمة المسلمين . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من ظلم ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة . ومن ظلم ذمياً لم يرح رائحة الجنة » ــ الحديث . وهو صحيح .

الثامنة :

ما تعلق بالذمة مما جهلت[2] أربابه ينبغي أن يؤخذ في رده بالسياسة إن أدى إلى ضرر ظاهر، ويعتبر منه إقامة وجوده وعياله دون سرف ولا إقتار مخل[3]، لأنه من جملة المساكين.كذا كان يقول بعض شيوخنا ــ وربما نقل عن المازري[4].

التاسعة :

البغي ونحوها إذا تابت وبيدها مال من رجل بعينه قيل : ترده له ، لأنه خرج في غير حق . وقيل : لا[5] لأنه أخرجه في باطل ، فيتصدق به[6] . وثالثها إن كان عن عشق[7] رده له ، لأنه مغلوب . وإن كان لغير ذلك فلا .

---

(1) د : له منها .
(2) د : تعيث .
(3) ق : والاقتار مخل .
(4) د : المازني ، فانظره .
(5) لا ــ ساقطة في ق .
(6) د : فتتصدق .
(7) ق : عثور .

العاشرة :

متى أمكن الستر في رد المظلمة(١) وتصور وصوله دون إلحاق وصم بالعبد فلا يحل إظهار الأمر لأنه لا يحل له أن يلحق الوصم بنفسه ولا يشيع الذنب على نفسه . ولذلك قيل : « من أذنب سراً تاب سراً . ومن أذنب جهراً تاب جهراً » — ليذهب الآخر بالأول . والله أعلم .

تكمـــلة

غير أن [ميراث] رد المظالم ثلاث :

أولها : تنوير القلب لأنه إدخال سرور على صاحب الحق بدلاً من ظلمته(٢) بإدخال الكريهة(٣) عليه ودوامها في الجملة . الثاني : تحقيق القصد في التوبة بطرح النفس واطراح هواها لله ، وهـو مبادىء الصدق الموصلة إلى الله تعـالى الفاتحة لطريقه فافهم . الثالث : وجود العز الذي لا نفاد له بالله سبحانه ، لأنه متعزز بالله في حاله ، بتذلله له في بذل ماله ، وإظهار حاله . وهذا أيضاً مواريث العفو عن الجاني إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ولا زاد الله بعفو عبداً إلا عزاً » — الحديث .

وميراث التمسك بالمظالم ثلاث :

أحدها تمكن(٤) الظلمــة في القلب . الثاني زيادة الجــرأة في المستقبل . الثالث نقص التوبة وعدم استفادتها في بساط الفتح . ولذا قالوا : « من اقتصر

---

(١) ق : مظلمة .

(٢) د : ظلامته . ق : ظلمة .

(٣) د : الكربة .

(٤) د : تمكين .

على(١) رد المظالم في التوبة زلت قدمه ولم يفتح له • لأن الحقوق الشرعية عصمه » ــ أو كلاماً هذا معناه •

وداعية التمسك بالمظالم ثلاث :

أولها :

الكبر وعزة النفس عن المظلوم، إن لم يتق من الرد(٢) شيئاً ــ وإلا فللتقية حكم يخصها ، كما تقدم • الثاني : البخل والتأويل ، وهما قاصمان للديانة في كل مقام• الثالث : التوهم والتخيل في عدم الإسعاف عند التحلل(٣) أو عدم القبول عند التوجه • ولا براءة من ذلك إلا بظن غالب بعلامة تنزله منزلة القطع • وكل هذه نتيجة ضعف الهمة ، في تحقيق التوبة وتبرئة الذمة • والله أعلم •

وداعية التحامل على ردها ثلاث :

أولها :

احتقار النفس وحظها(٤) جاهاً وغيره • الثاني : الثقة بالله في القبول وإجبار ما يختل بسبب ذلك من الحال • الثالث : انتعاش الهمة باليقين بالدار الآخرة وما يلحق فيها من ظلم أخاه • وهذه كلها تستفاد من سماع الأخبار الواردة في الظلم ، والحكايات الواقعة بسببه، والآفات اللاحقة منه • والله أعلم •

خاتمــة :

ملاك الأمر كله الاستعانة بالله ، ومظهرها إنما هو اللجوء إلى الله ، وأساسها الاعتماد على الله ، وللأسباب حكمة ، قد ظهر معها وجود النعمة والنقمة • فإذا خطر لك خاطر(٥) نزوع إلى الذنب فضع يدك على صدرك قائلاً : « سبحان الملك

(١) د : عن •
(٢) د : لم يبق له من الرد شيئاً •
(٣) التحلل ــ ساقطة في ق •
(٤) د : وحظها •
(٥) خاطر ــ ساقطة في د •

الخلاق الفعال • إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » سبعاً ، تر بركة ذلك لوقته لا سيما إن أضفت له وجود الاستغفار ، والصلاة على النبي المختار (صلى الله عليه وسلم) • وإذا عرض لك عارض العجز عن القيام بما عليك فقل(١) : « اللهم لا حول ولا قوة إلا بحولك وقوتك • فهب لي حولاً وقوة أستعين بهما على طاعتك » • لا سيما في السجود ، فإن أثرها ظاهر فأكثر منه(٢) • وإذا تمنعت(٣) عليك نفسك في رد الحقوق فقل : « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها • أنت وليها ومولاها » ، في سجودك ، بل في أكثر أحوالك • وإن أردت التوجه لمظلومك واتقيت عدم قبوله فقل : « اللهم أنت العزيز الكبير ، وأنا عبدك الضعيف الذليل • ولا حول ولا قوة إلا بالله • اللهم سخر لي فلاناً كما سخرت البحر لموسى بن عمران • وألن لي قلبه كما ألنت الحديد لداود عليه السلام • فإنه لا ينطق(٤) إلا باذنك • ناصيته في يدك ، وقلبه في قبضتك ، تقلبهما كيف شئت • يا أرحم الراحمين » •

واعلم ان هذه الأذكار الموقعة على المقاصد لا تلزم إفادة خاصيتها حتماً • بل وجود الفائدة في الجملة • فإن لم يكن المقصود كان اللطف في الموجود • وكل معنى توجه له مع انحلال في القوى وفتور(٥) في الهمة فأثره بعيد ، خلاف(٦) العكس • فاجمع قلبك ، واطلب ربك ، وفارق ذنبك ، تنل مقام التقوى ، وهو القطب الذي يدار عليه في هذا الباب والله أعلم •

القطب الثالث من الموقف الأول :

اجتناب المحارم — وهو التقوى وعليه المعول • وأركانه أربعة بها يتم ، أولها ركن العلم وبه ينتظم • وإقامة اربعة ، منها دائمة [ومنها] منقطعة •

(١) فقل — ساقطة في ق •
(٢) ق : بأكثر منه •
(٣) ق : منعت •
(٤) د : ما ينطق •
(٥) ق : وتلك •
(٦) د : بخلاف •

في العلم(١) الباعث عليها [والوجه الموصل إليها](٢) • وهو اربعة انواع ، يوجب كلها التمسك والاتباع •

الأول :

العلم بفضلها ، ولواحق الخير التي تلحق بأهلها • ويكفي في ذلك قوله تعالى: « والعاقبة للمتقين » وقوله تعالى : « والعاقبة للتقوى » وقوله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا » وقوله عز وجل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » • وقد ذكر بعض العلماء أن التقوى مذكورة في كتاب الله تعالى قريباً من مائتي مرة • وذلك أول دليل على عظيم قدرها • ولولا ذلك ما أوصى الله تعالى بها الأولين والآخرين ، فقال عز وجل : « ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وحصر ــ سبحانه ــ الكرامة عليه في التقوى ، فقال عز من قائل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ــ إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من فضلها •

الثاني :

في ذم نقيضها وبخسه(٣)، ومصيبة تاركها ونكسه • وذلك معلوم من الدّين ضرورة ، وآفته(٤) معلومة مشهورة • وأمهاتها عشرة ، وكلها عظيمة معتبرة : أولها وجود الذل في الحال • الثانية وجود الذل في المآل • الثالثة الاتسام بسمة الفساد • الرابعة وجود [العقوبة إن لم يقف في المعاد • الخامسة التعرض لسوء الخاتمة • السادسة](٥) التعرض لسخط الله ــ وهو القاصمة • السابعة تفويت(٦)

(١) العلم ــ ساقطة في ق •
(٢) ما بين قوسين ساقط في ق •
(٣) ق : ونحسه •
(٤) د : وآفاته •
(٥) ما بين قوسين ساقط في ق •
(٦) ق : تقوية •

فضيلة الفتح في العلوم • الثامنة عدم القبول للعمل في العموم • التاسعة وجود التثبيط عن العمل • العاشرة حسرة فوات المقصد الأكمل • ولكل من هذه دليل يطول ذكره ، ويعرف في من اتصف بالمعاصي أمره • أعاذنا الله تعالى منها ، وزجر قلوبنا وجوارحنا عنها • فإنه الولي الكريم والعلي العظيم •

الثالث :

العلم بتفاصيلها بعد البواعث • وهو يدور على ثلاثة أصول(١) هي مفاتيح الخير والوصول • أولها : تمكين حقيقة ما ذكر من العلوم [بالفلك المرسخ في النفس على الوجه المعلوم](٢) وهو أن ينظر في فضائلها وفوائدها ويستمع لما ينقل من آثارها وعوائدها • حتى تصير عنده راجحة بدلاً من المرجوحية • وذلك بعد مقدمات الفكر من الخلو وخفة المعدة ، ونحو ذلك • فافهم • الثاني : الالتفات لذنوبه(٣) حال التلبس بها أو فقدها بكنه الهمة والنظر بمطلق التزكية وطلب الكمال • [فإن ذلك](٤) يلفته لنفسه تقبيحاً لحاله بالنطق(٥) لما يراه من غيره [قبيحاً وتحسيناً لما يراه من غيره](٦) حسناً وهو أعون ، لما جبلت عليه النفوس من طلب الاقتداء • ولذلك أمر بصحبة الصالحين ، ونهي عن صحبة الفاسقين — فافهم • الثالث : أن يكون التفاته لمطلق التحصيل في الخصلة ، لا لكمالها لأول وهلة ، لأن نظره إلى الكمال يدهشه ، وأخذه بحقائق الاحكام لا ينعشه • ومن أراد الاتصال برأس ماله فليبدأ بالسماح في حاله • فإن السماح رباح لا في عين المقصد إلا في غير المقصد(٧) ليس بمباح • فتأمل ذلك واعمل عليه ، وبالله التوفيق•

الرابع :

في العلم بمواقعها وهو النافع • وهو أربعة أطراف ، يظهر في كلها الاعتدال

---

(١) ق : أحوال •
(٢) ما بين قوسين ساقط في د •
(٣) د : لرؤية حاله •
(٤) ساقطة في د •
(٥) ق : لحالة النطق •
(٦) ساقطة في ق •
(٧) د : إلا في عين المقصد •

والانحراف(١) .

الطرف الأول :

في موقعها من العبادات ، باعتبار ما يلحقها من النقص والزيادات . ولا يخلو ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها :

أن يقع في الفعل بعمد أو جهل أو سهو . وأحكامه(٢) مسطرة في كتب الفقه على تفاصيله فإليها المرجع فيه لأربابها . **الثاني** : أن يقع ذلك في المعاني ، كنقص الحضور في محل طلبه وزيادة فهم في محل طلبه(٣) ، والتقوى في ذلك بحسبه . فكل نقص كان مقصود الفعل لأجله كان مخلاً بالحقيقة وإن لم يعط الظاهر حكمه . وكل حكم لا يعضده الظاهر بصورته فالتقوى في تركه . فمن الأول عدم الاعتداد بما فقد منه الحضور ، ومن الثاني التوقف عن الكلام في الشبه والمشابهات ، كالموهمات والمبهمات والمشكلات إلى غير ذلك مما يذكر تفصيله بعد إن شاء الله . **الثالث** : أن يقع ذلك في الحكم . وهذا هو البدعة ، لأن البدعة اعتقاد ما ليس بقربة قربة ، أو اعتقاد نفي القربة عما هو قربة . أو إعطاء الحكم لما ليس له شرعاً وهو أخص . **وأقسامه(٤) ثلاثة :**

أولها :

البدعة الصريحة ، وهي التي تقابل سنة صحيحة ، من غير قيام شبهة مقابلة ، ولا حجة نافلة حاملة ، كالإكثار من صبّ الماء في الوضوء ــ مع اعتقاد ندبه ــ أو التعمق في التدلك ونحوه ، إلى غير ذلك مما يذكر ــ إن شاء الله ــ منه جملة ، وينبه على ما فيه من خصلة .

---

(١) ق : والانجراف .
(٢) د : وأحكامها .
(٣) د : في محله .
(٤) د : وأقسامها .

الثاني :

البــدع الاضافية ، وهي التي تحولها الاحوال والنية ، كالتبرك بالآثار ، والاجتماع للدعوات والأذكار •

الثالث :

البدع الخلافية ، وهي باعتبار المــلاحظات الأصلية • فكل إمام فهم من الشريعة أصلا بنى عليه ، ونسب الحكم[1] الذي يقتفيه إليه •فلذلك تجد أحدهم ربما قال بسنية ما قال صاحبه بابتداعــه ، وليس أحدهما بمبتــدع ـ لتمسكه بالحق واتباعه• ولو قيل بذلك للزم تبديع كافة الأئمة ، وهو ضلال وخبال وظلمة• لكن التقوى في هذا الوجه تجري بحسب الأشخاص ، على قدر ما هم به من كمال علم أو انتقاص • والناس ثلاثة :

الأول :

عالم يدرك وجوه الترجيح ، فيتعين أخذه بالأرجح أبداً ويؤثر منه الأحوط ، لأنه بساط السلامة دون وقوف في محل الجواز والإجزاء فقط • ولهذا كان كثير من الأئمة يأخذ بخلاف ما يفتي[2] به ، فيحمل نفسه على الأقوى وغيره على وجوه الرفق إلا من علم منه مثل الذي علم من نفسه • والله أعلم •

الثاني :

مقتــدٍ يتبع إمامه في رواياته وأصوله[3] • فحقه الأخذ[4] بالأحوط من مذهبه ، وإن أمكنه الاحتياط بإدخال مذهب الغير على الاحتياط فله ذلك ما لم يكن مما ينكره إمامه ـ ولو بالكراهة ـ فلا حاجة له إليه ، إذ وجود أرجحية

---

(1) الحكم ـ ساقطة في د •

(2) د : يقضي •

(3) ق : ووصوله •

(4) ق : وان كان •

إمامه في نفسه مانع له من الانتقال إلى غيره ـ لأنه لا يجوز له أن يعمل إلا بما انتهى إليه علمه أو علم أصله بوجه واضح •

الثالث :

العامي ، وهو كالمقتدي في ما يلقي[1] إليه أئمة مذهبه من وجه يستشعر ثقته ولايقصد ترخيصه بل احتياطه إن أراد أن يكون من المتقين، وإلا فلا عبرة به• ويتعين عليه أن يسأل عن وجه المذهب في ما هو به ، ولا يأخذ الأمور مجازفة ولامن لايعلم ديانته ولاتحقيقه•قيل: لذلك عيّن الناس المفتيويتعين[2] على الأمراء إقامة منصبه للعامة ، إذ لا يعرفون وجوه الترجيح ولا يتوجهون لها • فافهم •

تفصيل لبعض ما تقدم ، وهو أهم ما يذكر ويقدم •

الأول :

أن تعلم أن مذهب الأصولي والفقيه يدور عـلى إسقاط[3] الحرج ومذهب الصوفي والورع يدور على موجبات الكمال • فحكم الفقيه أن يأخذ بالأبين ، وحكم الصوفي أن يتحـرى الأحسن • والكل عـلى هدى ، وإن كان البعض أهدى • فافهم •

ومن هذا الوجه كان مذهب الصوفية في الاعتقادات تابعاً لمذهب السلف في إثبات التنزيه ونفي التشبيه من غير تعرض للتأويل ، ولا ميل إلى الأباطيل • وإن تكلموا في شيء من التأويل ـ بعـد نفي المحال ـ فعلى سبيل العلم ، وإبـداء ما عندهم من الفهم ، لا على وجه القطع به والجزم • فهم يقولون في كل صفة سمعية ما قاله مالك في الاستواء ، إذ قال : « الاستواء معلوم ، والكيف غـير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ـ يعني من البدع الإضافية

(1) د : يلقيه •

(2) د : وتعيّن •

(3) ق : يحوم على مسقاط • د : مسقطات •

... الكلام في الاسم ، والمسمى ، والذات ، والصفه ، والاتصاف والتلاوة ، والمتلو ، والقـدرة ، والمقدور ، والوجود ، والموجود • وفي أحوال الآخرة بالتفصيل ، كحقيقة[1] الموت والفناء ، ومعنى الذهاب والبلى ، وكيفية الميزان وتعدده •• الى غير ذلك مما لا ينبغي الخوض فيه الآن إلا على سبيل تعرفه نفياً للجهل به ، مع اعتقاد ما يوجبه[2] العقل ويثبته النقل ، كما ورد دون زيادة ، إذ ليس ثم ألحن من صاحب الحجة بحجته • ونسعنا ما يسع سلفنا ولا يضرنا الجهل بالمجمل بعد نفي المحال ، كما لا يضرنا الجهل بألوان الأنبياء وأنسابهم مع العلـم بما هم عليـه من كمال الاختصاص ونفي الانتقـاص • والكل بشر ، لا كالأبشار[3] كما أن الياقوت حجر ، لا كالأحجار • وإن فضل بعضهم على بعض فبحكم من الله ، إذ الكل وفّى بما أمر من غير تقصير ولا إخلال • وما ورد في حقهم من إثبات خطاب ، يقتضي ظاهره وجود العتاب ، نزهناهم عن قياسه بما يقع للغير ، وأقمنا لهم حق المنصب من التعزيز والتوقير ، راجعين إلى ان السيد يقول لعبده ما شاء ، وعلينا أن نتأدب مع العبد لنسبته منه ، ونتقي الخوض في ذلك بكل حال • والله — سبحانه — الموفق للصواب • ومذهبهم في الأحكام تابـع لعلمائها ، وهم الفقهـاء القائمون بعملها وإبدائهـا • ويختارون من ذلك ما كان أمسّ بالحـديث ، وأقرب للاحتياط وأدعى للتثبيت • ما لم يكن فيـه إنكار لإمامهم فيرجعون له في أحكامهم • لأن علماء الأحكام قد هذبوا ونقحوا ، وأبطلوا في الأدلة وصححوا • فلزم اتباعهم في ما أوضحوا ، واعتمادهم في ما صححوا •

فالصوفي لا يفارق السلف في معتقده ، ولا يفارق الفقهاء في معتمده ، لأن العقائد رأس ماله ، والأحكام أساس أعماله • فالمخاطرة بهما[4] ضرر ، والعمل بغير المذهبين المذكورين فيهما غرر •

(1) د : لحقيقة •

(2) ق : ما يوحيه •

(3) د : كالبشر •

(4) د : فالمخالفة لهما •

ثم هم في الفضائل على مذهب أصحاب الحديث ، لما هم عليه في ذلك من التحقيق والتثبيت • وبهذا الوجه يفهم ما أجمعوا عليه من التزام مذهب المحدثين.
وما يذكر عنهـم من أعمـال التابثين • كان الجنيد ثورياً ، والمحاسبي شافعياً ، والشبلي مالكياً ، والجريري حنيفياً ، والجيلاني حنبلياً •• إلى غير ذلك •

واختص مذهبهم في الآداب[1] بأصل ترجع إليه مفترقات أحوالهم ، هو أن اعتبارهم بإفراد القلب لله دون ما سواه • فكل ما يحقق لهم ذلك ينتهجونه رخصة كان أو عزيمة ، وإن دخله خلاف عالم أو اشتباه لا يقضي بوجود النكير المطلق • ومن ثم قالوا بأمور لم يقبلها منهم من لم يعرف أصولهم ــ وهو عـلى حق في إنكاره • واقتفاها قوم على غـير هـذا الأصل فضلّوا وأضلّوا ، كالسماع ، والخمول ، وترك الشهوات ، والكلام في الخواص[2] ، والوحدة في الأسفار •• ونحو ذلك • فافهم •

وشروطهم في ذلك ثلاثة لا بد من معرفتها مخافة الغلط :

أولها :

أن لا يكون الفعل والقول مخلاً بالأصل الذي هو طلب الجمع[3]،كالمعاصي الصريحة ، والقبائح المتفق عليها ، والبدعة الصريحة أو الإضافية مع ما يحقق الابتداع فيها • فإنها ظلم كلها ، والظلمة لا تجلب النور ، بل تتلف عينه[4] • ومن أراد النور منها فقد أراد ما لا يصح وجوداً •

الثاني :

تصحيح القصد في التوجه والوجه والبساط والمناط • فلا يخل بأدب[5]

(1) د : الآثار •
(2) د : الخواطر •
(3) د : مطلب الجميع •
(4) د ، ق : عنه •
(5) د : بآداب •

الوقت ولا يتوجه قبل التحقيق(١) بالإفادة واقتضاء الحال لها .

الثالث :

الاقتصار على مقدار الضرورة من ذلك في ما قصد له ، لأن ما أبيح(٢) للضرورة قيد بقدرها في الجملة والإسترسال مع المباحات مخل بأصل القصد وممكّن في النفس استحلاءها حتى تدعو النفس إلى طلبها . وهذا الوجه هو الذي قعد بكثير من المريدين عن الوصول ورد كثيراً من الواصلين إلى أسفل سافلين. وإليه أشار الجنيد (رحمه الله) [بقوله ليوسف بن الحسين (رحمه الله)](٣): « لا أذاقك الله طعم نفسك . فإنك إن ذقته لا تفلح بعده أبداً » . وهذا الأصل الذي ذكرناه مستشعرين جواب الجنيد(رحمه الله تعالى) للذي سأله عن السماع، فقال : « كل مايجمع العبد على مولاه فإنه مباح». وقد ذكر السهروردي في كتاب (آداب المريدين) رخص المذهب ، وذكر منها هذا . ولا(٤) رخصة لمن لا(٥) يأخذ بالعزيمة ، إذ تتبع الرخص مذموم إجماعاً . فتمسكوا بأحكام التقوى والسلامة، والسلام .

الطرف الثاني في موقع(٦) التقوى من العادات ومايداخلها(٧) من قبيح الإرادات. وذلك يدور على ثلاثة مواقع : ٨

أولها :

وجه الأخذ والترك ويدخله(٩) الحلال والحرام والمنع والجواز . فإن

(١) د : التحقق .
(٢) د : ما أبيح ـ ساقطة في ق .
(٣) ما بين قوسين ساقط في ق .
(٤) د : إلا .
(٥) د : لم .
(٦) د : مواقع .
(٧) ق : يدخلها .
(٨) د : مواضع .
(٩) ق : ويدخلها .

أضاف(١) إليه تغير الحكم كان بدعة وإلا فهو بحسبه ، وأهمه المتشابه . فإن الحلال بيّن والحرام بيّن ، ومن ترك الشبهـات استبرأ لدينه وعرضه . لكن الواجب من مجانبة الشبهات مجانبة ماقوي وجوده كاختلاط محظور بمحظور(٢)، [وما وراء ذلك ورع](٣)ــ إلا أن يكون بغير(٤) أصل، فشكّ بلا علامة وسوسة ، ورب ورع كان إذاية . فتفقه بعد الفقه في الأحوال إن أردت السلامة. والله أعلم.

الثاني :

وجه التناول وفيه تحريم ــ كالحرير(٥) ونحوه ــ وإباحة وندب . فتغيير الحكم ابتداع والاقتصار على المندوب استقامة والأخذ بالمباح تقوى(٦) وما وراء ذلك(٧) محرم أو مكروه . والله أعلم .

الثالث :

مواقع التقلب وهي بساط الآداب ، كبر الوالدين وجوباً والمعلم كـذلك براً وأدباً وطاعة الأمراء فيما لم يخالف الشرع ، وهو السمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً مجدعاً . قال عمر (رضي الله عنه) : « إن شتمك فاصبر ، وإن ضربك فاصبر ، وإن أخذ مالك فاصبر . وإن راودك على دينك فقل : طاعتي في دمي دون ديني. ولا تخرج يداً من طاعته(٨) » . وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « اسمع وأطع وإن ضرب الظهر وأخذ المال » . وقال (صلوات الله وسلامه عليه):

---

(١) د : انضاف .

(٢) ق : محصور بمحصور .

(٣) ما بين قوسين ساقط في د .

(٤) ق : على غير .

(٥) كالحرير ــ ساقطة في د.

(٦) تقوى ــ ساقطة في ق .

(٧) ق : بالمباح يوماً وراء ذلك .

(٨) ق : طاعتك .

(أعطوهم ما سألوا وحسابهم على الله) • وقال (صلوات الله وسلامه عليه) : (ما مشى قوم إلى السلطان شبراً ليذلوه إلا أذلهم الله) • وقال (عليه السلام) : (ما سب قوم أميرهـم إلا حرموا خـيره) • وقال (عليه الصلاة والسلام) : (المؤمن لا يذل نفسه) • قيـل : (وكيف ذلك يا رسول الله ؟) قال : (يتعرض للسلطان وليس له من النصف[1]) وفي بعض الكتب : (يقول الله تعالى : أنا الله لا إله إلا أنا ، ملك الملوك • قلوب الملوك بيدي • فمن أطاعني جعلتهم عليـه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة • فلا تشغلوا أنفسكم بسبهم[2] ، وادعوني أعطفهم عليكم) ـ الحديث • والحق أن الملوك رحمة من جانب نقمة من آخر • فمن أهمـل حقوقهم هلك في الدنيا والآخـرة [ومن تعرض لهم خسر في الدنيا والآخرة][3] ، ومن اعتمدهم فاتته الدنيا والآخرة • والسلام •

الطرف الثالث :

في الأخلاق الـذميمة[4] وما يعرض للأخلاق[5] المستقيمـة • والناس في ذلك ثلاثة :

الأول :

رجل علت همته ، وارتفعت عزيمته ، [فعظمت رتبته][6] وغلت قيمته • فعرض له في ذلك ثلاثة من أمهات المهالك[7] : أولهـا : الطمـع وبساطه ضعف الإيمان ومادته الوهم وغايته الحرمان وباعثه الغفلة والألف للأسباب[8] • فقد قيل : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقـال : الشك في المقـدور • ولو قيل له :

(1) النصف ـ هكذا في النسختين •
(2) ق : بهم •
(3) ساقط في ق •
(4) ق : الذمية •
(5) ق : للخلق •
(6) ساقطة في ق •
(7) ق : الهلاك •
(8) د : بالاسباب •

ماحرفتك ؟ لقال : اكتساب الـذل . ولو قيل له : ما غايتك ؟لقال:الحرمان.
الثاني : البخـل وبساطه خوف الفقـر وضعف النفس وغايته الحسد وغرضه التعدي والظلم والإخـلال بالحقوق . الثالث : الكبر وبساطه التعزز(١) ومادته الرضا عن النفس وغايتهفقد الإنصاف ودوام الإنحراف وعدم التوقف فيالحقوق. وإن كان صاحبه في غاية صور الضعة فإنه متكبر . فاعرف ذلك .

الثاني :

رجل حصل له شيء من الرفعة وأثر(٢) من مبادىء ارتفـاع القطعـة .
وأصولها ثلاثة : أحدها : قلة المبالاة في الحال اعتماداً على رتبته . الثاني : الاستظهار بالدعاوى استشعاراً لمزيته . الثالث : الاصطلاح(٣) للمخالفات انتصاراً لهواه في حالته .

الثالث :

رجل(٤) تهور مع المتهورين وتجبّر مع المتجبرين . **وقواعد آفاته ثلاثة جامعة** وهي التي بها النفوس والعة :

الأولى :

التجسس ومنه ينبعث كل فعـل خسيس ، كالغيبـة والنميمة وكل إذاية وذميمة . لأن من تطلع للأخبار لم يعدم الشرور في الإخبار .

---

(١) د : التعزير .

(٢) د : وآثاره .

(٣) د : وأصوله .

(٤) د : كرجل .

الثانية :

الاسترسال مع الطبيعة فيما يأتي به من شنيعة وغير شنيعة ، من غير تفصيل في الأحوال ولا التفات للنقص والكمال ، وهذه من حمق غالب أو هوى طالب أو قلب عن الحقيقة غائب . فإن أفعال العقلاء مربوطة بالمقاصد متوقفة على المراصد . ومن أرسل نفسه وقع في أودية الهلاك ، كما ورد : « في كل واد من قلب ابن آدم شعبة . فمن تتبع قلبه تلك الشعاب لم يبال الله في أي واد أهلكه » ــ الحديث .

الثالثة :

التعزز والاستبداد بالرأي ومنه يتولد حب المدح والتوقف في مواطن الذبح.

فتنبه ــ أيها الأخ ــ لهذه الأصول التي رسمت لك تجد جميع المعاصي دائرة عليها ، وخارجة منها وعائدة إليها . واعلم أنها تحدث من[1] أمور ثلاثة : أولها: الاقتداء بالناس المعتقدين الذين يظهر منهم ذلك. الثاني : الغفلة من موارد الأحوال ومصادرها من الأعمال[2] لعدم محاسبة النفس . الثالث : حسن الظن بالنفس والاسترسال معها . فاحذر نفسك ، أولاً ، واحذر الناس ثانياً[3] ، من غير أن تسيء الظن بهم . بل كما قال مالك (رحمه الله) : « تمسك بالذي لاتشك فيه ودع الناس ، ولعلهم في سعة » . ولا تقلد دينك الرجال ، بل قلده العلم الذي لا يمكن الغلط فيه ، وبرهانه في نفسه ، وهو ما جاء عن الله ورسوله حسبما فهمه أولو العلم والحكمة . وحاسب نفسك في ما دقّ وجلّ[4] . واجعل ذلك[5] آخر كل يوم لتعرف ما فيه . ولا تعتمد بالأمور العامة الوقوع

---

(1) د : منها .
(2) د : الأحوال :
(3) ثانيا : ساقطة في ق .
(4) د : دون وجل .
(5) د : كذلك .

ما لم تحقق أصولها وتعرف طائلها ومحصولها بوجه صحيح ، فإن الهوى في هذه الأزمنة قد غلب ، والحق قد عفت[1] آثاره وذهب ، إلا عند أهل العصمة والعناية، وذوي الكرامة والولاية ، الذين ربطوا ظواهرهم باتباع السنة ، وحققوا بواطنهم بشهود المنة، فالتزموا خاصة نفوسهم من غير زائد ، وأخذوا بالأحوط في العبادات والعوائد ،عملاً بقوله (صلى الله عليه وسلم) : (إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك) ـ الحديث • فلا يضرهم من خالفهم ولا يضيرهم من خذلهم ، كما وقع في الحديث • جعلنا الله منهم بمنه وكرمه •

الطرف الرابع :

في تعرف [المجهول من المواقـع][2] وما يعرض للمحامد[3] من المقاطـع ومداره على ثلاثة أوجه :

أولها :

في معرفة الوجوه المحمودة التي يعرض لها ما يعرض • وذلك في موقف الاستقامة أظهر •

الثاني :

في كيفية العمـل في استخراج المجهولات [واستنباطهـا • وهو بالركن الثالث أمس •

(1) د ، بعدت • ق : تعفت •

(2) ما بين قوسين ساقط في ق •

(3) د : للحامة • ق : للمجل •

الثالث :

في مقاصد الأمور التي بها](1) يظهر الخلل والكمال • وهو بالموقف الثالث وسننبه على كل في محله — إن شاء الله تعالى •

الركن الثاني :

في وجوه العمل بالتقوى وما يضعف به أصلها وما يقوى(2) • ومداره على ثلاثة سوابق ، ترجع بالأخير لأنها لواحق :

الأول :

تمكن العلم بفائدة التقوى من النفس وذلك بالفكرة في حسنها(3) وفتح الذنوب تفصيلاً في الأول وجملة في الثاني • لأن التفصيل يولد ارتسامها في الخيال مع غلبة الهوى ، والشهوة مغطى العقل والعلم والبيان •

الثاني :

الدفع الأول عارض من الذنب • إذ قيل : أول الذنب الخطرة كما أن أول السيل القطرة • فإن تعاهدها بالكراهة وإلا صارت معارضة • فان قوبلت بالكراهة وإلا صارت وسوسة • فإن قوبلت بالمجاهدة وإلا هاجت منها الشهوة ، مع غلبة(4) الهوى ، فغطى العقل والعلم والبيان •

الثالث :

الاحتياط في الامتناع بترك ما يدعو إليها جملة • ومفتاحه التأويل بذكر النعمة في نقصها ، أو إخماد النفس بذكرها ، أو تجوير(5) النفس في دعواها •

---

(1) ما بين قوسين ساقط في د •
(2) د : ويقوى •
(3) د : في نفسها •
(4) د : طلب •
(5) ق : تجويز •

وكل هالك ، إلا من عصم الله •• وقليل ما هم •

تنبيــه :

مدار هذا الركن على إيثار السلامة في جميع أبوابه • ومفاتيح هذه التشوف لإيثار الغنيمة عليها • لأن ذلك داعية العمل فيها ، مع إمكان وجود(1) العطب بوجه يستخف ، ولا خفيف في الذنوب وإن اختلف فيها • فافهم •• وبالله التوفيق •

الركن الثالث :

في تفاصيل أحوال(2) التقوى وما يتجدد فيها(3) منها أو يقوى • ومرجع ذلك لأعمال(4) الجوارح وما يعرض من المرجوح والراجح • فانظر أي وجه غلب عليك فاجعل همك به دون غيره مما لديك • حتى إذا فرغت من ذلك الأهم ولم تنتقل عن الذي قبله(5) بالأمر الأعم ، فجعلك الهـم به متعلقاً مقـدمـ(6) • ولك في بساطة ثلاثه أمثلة هي الغالبة على كل نفس مسترسلة :

أولها :

إرسال اللسان في الغيبة والهذيان مما لا يعني ولا يغني •

الثاني :

عدم التوقف في التناول أخذاً وتركاً وحباً وبغضاً ومدحاً وذماً ، إلى غير ذلك.

الثالث :

تعلق القلب بالخلائق والغفلة عن التعلق بالخالق •

---

(1) وجود ــ ساقطة في ق •
(2) ق : أعمال •
(3) د : فيه •
(4) ق : لاحكام •
(5) د : يليه .
(6) د : ملازم •

ولكل هذه مواد جمة تذكر منها العامة المهمة : فأصل الأول الموافقة وطلب الأخبار • وأصل الثاني عدم الاهتبال وحب الاستكثار • وأصل الثالث الغفلة عن تقلبات الليل والنهار •

فترك الأولى بالاقتصار(١) عليك • وترك الثانية بالقناعة فيما منك وإليك • وترك الثالثة بالفكر(٢) فيما لديك • إذ تجد أقرب ما إليك بعيد ، وأعظم(٣) مافي وجودك غير مفيد •

وبانقطاع هذه الثلاث تسمو الهمم وتكمل النعم • فبالأولى تحصل سلامة الصدر وحسن الظن بالمسلمين • وبالثانية يتحقق الورع ويتنور القلب • وبالثالثة ينتفي عنك ألم المواجهة والمقابلة للخلائق رضا بحكم رب العالمين • رزقنا ذلك بمنّـه وكرمه •

الركن الرابع :

في مداخل العلل وما يتعرف به مجهولات الذلل • فأما **مداخل العلل فثلاثة :**

أولها :

غلبة الشهوة ولاوجه لدفعها إلا بالمجاهدة والفرار عن محالها جملةوتفصيلاً.

الثاني :

غلبة الهوى ولا دافع له إلا بالعمل بالاحتياط وسد باب التأويل •

الثالث :

استيلاء الغفلة ومقابلتها بالتشمير والتفطن(٤) لمواقع(٥) الأحوال • ولاسبيل

---

(١) ق : بالابتصار •
(٢) د : الفكرة •
(٣) د : وأقرب •
(٤) د : والتفطير •
(٥) د : لموانع •

لك(١) إلى ذلك إلا بمعاداة نفسك والبحث عن مكان عيوبها التفصيلية من حيث العلم أولاً ثم من حيث الوقع آخراً .

فأما العلم

فقد ذكر منه المحاسبي والغزالي والسلمي في كتبهم جملة . وأحسن مافي ذلك ما للمحاسبي والسلمي، فعليك بهـ مستعيناً بالله في الجلب والدفع لابنفسك.

وأما الوضع(٢) فهو تعرف(٣) المجهولات ويكون بأربعة أوجه :

أولها :

أن تكون لك بصيرة نافذة يعضدها قلب حاضر(٤) ومراقبة تامة ، تدرك ماهي عليه في الحال وماتيئه للمآل . وهذا لايصح إلا بإسقاط الرضا عنها جملة . وهذا(٥) متعذر لما جبلنا عليه من حبها ولازمه الذي هو الإغضاء عن عيبها ، وإن تصور وجدان هذا الوجه ففي خصوص لا عموم كما هو مشاهد معلوم .

الثاني :

اتخاذ شيخ نصيح صاحب عمل وعلم صحيح ، يقيمك مقام نفسه ويعمل معك ما يجده في رمسه . فلا يألوك نصحاً إلا بذله ، ولا وجهاً من التكميل إلا استعمله . وهو الآن معدوم في المشرق والمغرب ، وإن وجد فأغرب من عنقاء مغرب ، لأنك لا تجد إلا صاحب حال وهمة أو صاحب علم وعمل بلا همة . وإن

(١) لك ــ ساقطة في ق .
(٢) د : الوقــع .
(٣) د : فهو أول .
(٤) حاضر ــ ساقطة في ق .
(٥) د : وهو .

كان النفع حاصلا بهم فلا من هذا[1] الوجه المذكور بل من وجه منبهم ٠

الثالث :

اتخاذ أخ صالح كذلك بصير بما يسمح ويحرّك ما هنالك ٠ يواليك بالشفقة والنصيحة ويحميك من النقص والفضيحة ٠ لا يعظمك تعظيماً يقتضي الإغفال ولا يحقرك[2] تحقيراً يؤدي إلى الإهمال ٠ بل كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (من أراد الله به خيراً رزقه صديقاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه) ــ الحديث ٠ وهذا أيضاً أغرب في الوجود من الغريب وأبعد من البعيد وأقرب من القريب ــ لفساد الزمان ووقوع المداهنة من الإخوان ٠

الرابع :

أن ترجع لترجمان الحق بالحقيقة وهو ما يجري على ألسنة الخليقة ٠ لأن ألسنة الخلق أقلام الحق وأحوالهم مترجمة بما هو الحق أو قريب من الحق ٠

فصـــل

ما نطق وجودك باستقباحه من غيرك فدعه من وجودك[3] في سرك وجهرك ولا تتأول اختصاصه باختلاف الحال ، فإن أصول العيوب لا تتقيد بالأحوال ، ووجه الكمال في ترك النقص بكل حال ٠ فافهم ٠ وكل ما نطق به وجود غيرك عنك أو عن سواك ، فلا تهمله فإنما[4] هو عيب بذاته هناك ٠ فلا تغالط الوجود في ما بعضه فيك[5] موجود ٠

(١) هذا ــ ساقطة في د ٠
(٢) د : يحتقرك ٠
(٣) د : ولج به وجودك ٠
(٤) د : مما ٠
(٥) د : فيه ٠

[illegible]
وتبصّره بعيوبه ، وتفكره ما مضى وتمرنه على التسليم للقضاء •

أولها :

تسلط الخلق عليه باللوم والتعييب ومعاملتهم إياه بالهجر والتنكيب، لينقطع إلى ربه لما[1] يذكرونه به[2] من عيبه •

الثاني :

اشتداد نفسه عليه بالتلون والوسواس والجموح على مر الأوقات والأنفاس، ليرجع منها إلى مولاه ويتفطن لمواطن الغلط في ما به يتولاه •

الثالث :

توجه البلايا والمحن وتخلف العوائد والمؤن ، لأنها مذكرات ومفكرات • قال الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » •

فالذنوب على ثلاثة أوجه :

أولها مفكرات :

وذلك في حق من صبر وسلم[3] دون منازعة ولا ضجر ، من غير زائد •

الثاني مذكرات :

وذلك في حق من تذكر بها وجه التذكير • وهو لا ينحصر في الوجه الذي وقع عليه ، بل جرت سنة الله ــ سبحانه ــ بالتستر[4] لعباده في ما هم به ، فلا

---

(١) د : مما •

(٢) به ــ ساقطة في د •

(٣) وسلم ــ ساقطة في ق •

(٤) د : بالستر •

الثالث عقوبات :

وهي التي تزيد صاحبها ضجراً وضيقاً وتسخطاً(٢) بالقضاء. نسأل الله العافية بمنّه وكرمه وفضله .

خاتمـــة :

فروع التوبة كثيرة ومداخلهـا غزيرة . وتصحيحها أصل صحة كل مقام ومجراها في المقامات مجرى الأرواح في الأجسام . إذ لكل مقام أحكامه ولكل حكم أحكامـه . وحسنات الأبرار سيئات المقربـين وحسنات المقربين سيئات أهل الكمال .

وكذلك التقوى تدخل في كل مقام بحسبه وتجري على قدر نسبته وسببه(٣).

وإنما التوبة والتقوى عزم ثم حزم ثم حكم . وكل أمر(٤) في الوجود يقوى ويضعف بسببه ومادتـه . ومـن المواد لزوم الاستغفـار ودوام الصلاة عـلى النبي المختار .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه : « إن أردت الصدق في الأقوال فأعن(٥) على نفسك بقراءة [(إنا أنزلناه) . وإن أردت الإخلاص في العمل فأعن على نفسك بقراءة (سورة الإخلاص) . وإن أردت النعمة في المظهر

(١) ق : الذي يأوون إليه .

(٢) د : وسخطا .

(٣) وسببه ـ ساقطة في د .

(٤) د : امرىء .

(٥) د : فعن .

فأعن على نفسك بقراءة](1) (قل أعوذ بربّ الفلق) • وإن أردت السلامه من شر الناس فأعن على نفسك بقراءة (قل أعوذ بربّ الناس» •

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : (إن أردت أن تسلم من جليّ الشرك وخفيّه فقل في صبيحة كل يوم ومسائه : (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم) ثلاثاً » •

وبالجملة(2) فحصن مقام التوبة بعد تحققها لزوم الاستقامة والتحقق فيها • فلنذكرها ــ وبالله التوفيق •

الموقف الثاني :

في الاستقامة وما تدعو إليه من الهداية والكرامة • وبسطها ثلاثة جامعة محصلة لذوي الهمم النافعة :

البساط(3) الأول في العبادات :

وهي فيها بالتحقيق والزيادات • ولا يخلو إما أن تكون العبادة مفروضة ، أو سنة مطلوبة معروضة ، أو نافلة ثابتة غير منقوصة •

فالاستقامة في الفرائض بالتزام(4) التقوى ونفي العوارض(5) • فتقواها(6) إقامة الواجب لها من غير إخلال ونفي العوارض بترك المكروهات وفعل وجوه الكمال • ولا يتحقق ذلك إلا بالورع في الاتباع وترك العمل بما فيه ترخص وابتداع •

(1) ما بين قوسين ساقط في د •
(2) وبالجملة ــ ساقطة في د •
(3) ق : البسط •
(4) د : بإلزام •
(5) ق : المعارض •
(6) ق : فتقويها •

الناس • واختصاص كل عضو بذكر مع اعتقاد السنية لا مع استشعار(٢) هـذه النية • ولا مسح الرقبة وإطالة(٣) الغرة وترك مسح الأعضاء بالمنديل وإن كان لا يندب عند مالك لمعارضة الدليل •

ومنها لطم الوجه بالماء ونفض اليدين قبل إيصاله إن اعتقد حكماً • وكذا الاستنجاء من الريح ونحوه•والتكبير عند غسل الوجه وما كان من شأوه • وكذا التشهد عند ذلك ، إذ لم يقل به غير بعض الشافعية ورد عليه فيما هنالك • وكذا تتبـع غضون الأذنـين عـلى ماقاله ابن الحاجب في كل ممسـوح إذ بني عـلى التخفيف والتقريب •

وهذه كلها بدع إضافية بعضها وفاقية وبعضها خلافية • وغايتها الكراهة إذا تمت الطهارة والنزاهة •

وكذلك في باب [الأوقات : مبادرة الأوقات على وجه المزاحمة ، وتأخـير الصلاة دون عـذر ولا مقاومة • ووجوه التضريب في الأذان ، ووصله بأقوال وأفعـال لم تثبت في أحكام الإيمان • وكذا وصل الإقامـة بالاستغفار قبلها واتصالها بعد بما لم يكن مضى به فعلها • إلى غير ذلك مما لا يصح كونه قربة ؛ وإن لم يكن لا يعصي العبد ربه •

ومنها في الصلاة : قراءة الفاتحة قبلها وأذكار لم ترد في السنة عندها وتخصيصها بقراءة أو ذكـر لم يعينه الشارع فيه ، كجعـل كل صلاة بسورة لا تتعداها ، والثانية أبدا بـ (الإخلاص) دون ما سواها • وقصد الخواص بهذا كـ (السماء ذات البروج) في العصر ، و (الم) في صلاة الفجر • وتخصيص الفجر

---

(١) د : فمن •

(٢) د : إشعار •

(٣) د : ولا إطالة •

بـ (إنا أنزلناه) و (ألم نشرح) إذ هو مقابل لما ثبت من (الإخلاص) و(الكافرون) فيها ، وتخصيص ما بعد المغرب بغير (الكافرون) و (الإخلاص) ، وختم صلاة الاستخارة بمثل : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ، ونحو ذلك ، إذ لم يرد في ذلك غير (الإخلاص) و (الكافرون) مع أن أصل الحديث فيها الإطلاق ،

وكصلوات الليالي والأيام الفاضلة وغير الفاضلة ، لأن أحاديثها موضوعة باطلة ، مع ما فيها من زيادة الكيفيات ، التي تخل بالديانة وتفسد النيات ،

ومن ذلك صلاة الرغائب ، وقد نص على منعها جماعة من العلماء وأجازها جماعة اعتباراً بأن حديثها ضعيف ، فالأولى تجنبها جملة ، وكاعتياد النافلة بالجماعة — وإن أجازه الشافعية — فلم يرد به فعل السلف ، ونص على كراهته مالك ، وكذلك رفع اليدين محل الإحرام لا للاحرام ، أو في الصلاة ، لنهيه — عليه السلام — عن ذلك ،

ونبه مالك — رحمه الله — على أن إجابة الإقامة ليس من عمل السلف وأن الجواب مطلوب للأذان لا للاقامة ، وفي التسميع من الخلاف مالا يخفى ، وهو مشوش للقلب مشغل للوقت عن الحضور ، والنداء على الجنازة أثقل منه ، وكذا التصنع فيه بالزيادة التي ربما يتفق على بطلان صلاة صاحبها ،

وكذلك الدعاء دبر الصلوات على الهيئة الاجتماعية في محل يفهم أنه من سنتها ، وكذا قراءة الحزب ، وفيه من التشويش على المصلين مالا مزيد عليه ، وإحداث(1) أذكار غير شرعية ، أو على وجه غير مشروع إدبار الصلوات من صريح الابتداع ، وربما كان منه قراءة الفاتحة ونحوها بعدد معلوم وكيفية معلومة ، إلا بعد إقامة الرسم الشرعي في ذلك ،

ومنه المصافحة بعد الصلاة — جمعة أو غيرها — وقراءة (السجدة) بعد

(1) ما بين قوسين [ ] ساقط في د ،

صلاة العصر لا سيما مع(1) سجودها ، وجمع آيات في ركعة على وجه مخصوص، إلى غير ذلك مما يطول ولا يمكن حصره ، لكن القاعدة الكلية في ذلك أن يحقق الإنسان أصل العلم بالسنّة المصحوبة بعمل السلف ، ويدع كل(2) ما يشك فيه جملة وتفصيلاً في هذا الباب وغيره .

وقد تكلم على كثير من ذلك ابن الحاج في (مدخله) والشيخ أبو إسحاق الشاطبي في (حوادثه) ، وأبواب الفقه في مطولات المذهب طافحة بها ، لا سيما (العتبية) وشارحها ، وقد أتى من ذلك بجملة صالحة الفقيه أبو القاسم البرزلي في أبواب كتابه ، فلينظر ، ولا يعوّل على تأويلاته باعتبار العمل بل باعتبار حسن الظن بالناس ، وبالله التوفيق .

البساط الثاني [في] العادات :

والاستقامة فيها بترك الدناءات شرعاً ومروءة في جميع الحالات ، فكل ما يذمه الشرع أو يأنف منه الطبع فالاستقامة فيه بتركه تنزيهاً للهمة لا تكبراً على من تلبس به من الأمة ، والناس ثلاثة :

الأول :

رجل ترك الدناءات تقذراً وتعززاً لا لأمر(3) زائد عن ذلك ، وعلامته أن لا يقربها وإن عرض له الموت دون وجودها ، وهذا لا يخلو عن كبر ورؤية حظ لنفسه فلا عبرة بباطنه وإن كان جميلاً في ظاهره .

الثاني :

رجل منعه منها ما يعرض له من قبل الخلق بسببها من إذاية(4) وتنقيص

(1) د : بعد .
(2) كل ــ ساقطة في ق .
(3) لأمر ــ ساقطة في د .
(4) من اذاية ــ ساقطة في ق .

وما يلحقه بسببها من ضرار[1] وتنغيص • وعلامته أنه إذا أمن من ذلك لم يمتنع من وجوده ولو اضطر له لم يقف مع موجوده[2]• إلا أن تقوى عليه دائرة الشرف فلا يتنازل[3] عن ذلك الطرف • وهذا أيضاً لا عبرة باعتباره•وإن كان رفيعاً في مقداره•لنظره لسوى مولاه•وعمله على غير[4] مابه يتولاه •

الثالث :

رجل لا[5] تعز عليه نفسه فيرفعها ولا الخلق فيراعيهم • وعلامته في ذلك أنه لا يبالي بالخلق في أي حال يرونه ولا بنفسه في أي مرتبة سقطت • وهذا بساط الحقيقة فإن وافق الحق كان كاملا [6] وإن لم يوافقه كان له قابلا •

وأصحاب هذه المرتبة ثلاثة :

الأول :

رجل تبع[7] ظاهره في ذلك باطنه فأخل بالحقوق الشرعية الجارية في بساط المروءة لإظهار أبهة الإسلام[8] وإقامة رسم الحكمة باتباع الأحكام •

الثاني :

رجل اعتبر لظاهره حكم المروءة فأقامه ولباطنه مافيه فلم يستنكف عن مقتضياته والاسترسال والتنازل لطبيعته والأخذ[9] بكل مباح يقتضيه حكم طبعه مالم يخش منه فتنة • وهذا كامل •

---

(1) د : أضرار •
(2) د : وجوده •
(3) د : ينازل •
(4) د : للغير •
(5) د : لم •
(6) د : ناقلاً •
(7) د : تتبع •
(8) ق : همة الاسلام •
(9) ق : والتنازع والتانيس والأخذ •

رجل أخذ بمخالفة باطنه والمثابرة على التحفظ في سياسة ظاهره فانقلبت حاله لعكسها برياضة كما تنقلب حال عكس(١) للعكس في ذلك . ولذلك أمر الشيوخ من كانت فيه عزة نفس [بابتذال نفسه](٢) وكان أنفع الأشياء مع أبناء جنسه حتى أمر أبو يزيد ذلك الشاهد بما أمره وأخذ لصّ الحمام نفسه بما أسقط حقه وهدره .. إلى غير ذلك . فافهم .

تحقيق :

إذا أردت العلم . بحقيقة حالك من المقامات المذكورة فاعرض على نفسك نقيض ما أنت فيه . فإن أبت فاعلم أنها على ما تفهم منها إلا أن تكون إبايتها مستندة بأول وهلة إلى وجــه شرعي(٣) إلا إذا استدركه فإنه من هواها . فاذا عارضك(٤) الوجه الشرعي في العمل بالنقيض فخذ بما يقتضيه الوجه الشرعي منه . وذلك بأن تعرض وجودك(٥) فيه حيث يجوز لك عمله عازماً جازماً على نقيضه . فإن أبت إلا الأول فزد عليهــا من مباحات ذلك النوع . مثاله أن يتعذر عليك في وجودك التصرف في أمور عادية يقتضي المنصب خلافها فتأخــذ بما لا يخل بالمنصب منهــا مما يقرب من ذلك ، كحمــل متاعك في السوق ولبس ثوب خلق ــ إن لــم يكن تعرضاً للطلب وإظهاراً للفقــر ــ حتى تألفه ثم تعود لأصلك . ولا تزال تعتاد ذلك مداواة لها(٦) وإن كان الأمر أشد من ذلك حتى(٧) تمتنــع مثلاً من الخروج حاسر الرأس فاحسر عن رأسك واعزم على الخروج كذلك ثم لا تخرج . وكرر ذلك حتى يخف عليها . وأمثلة هذا الباب كثيرة . وقد هلك

---

(١) ق : حال عكسه .
(٢) ما بين قوسين ساقط في د .
(٣) د : الى غير وجه شرعي .
(٤) د : عرضك .
(٥) د : وجوده .
(٦) ق : مداولة لها .
(٧) د : بحيث .

في هذا الباب جماعة بالأخذ والآخرون بالإهمال •• فاحذر • وبالله التوفيق • وهو حسبنا ونعم الوكيل •

البساط الثالث [في] الأخلاق والمعاملات : فأما الأخلاق فأصول محامدها ثلاثة :

أولها :

طرح النفس بإلزامها [الإنصاف وترك](١) الإنتصاف إلا في ما يوجبه الحكم بحيث لا مندوحة عنه فيقرره(٢) • وعلامة ذلك أن لا يبالي على لسان من ظهر الحق ولا من أي وجه استفاد • ويكون حرصة على ظهور فائدة الغير أكثر من فائدة نفسه إلاّ من حيث اعتبار الثواب بأن يكون ذلك هو الباعث لا العارض ويقتصر عن دواعي الرئاسة ما استطاع • فافهم •

الثاني :

سلامة الصدر من دواعي الهوى وطلب الحقوق • فلا يحقد ولا يحسد ولا يظلم ولا ينتصر إذا ظلم ولا يرى لنفسه فضلاً في ذلك • بل يعطي من حرمه ويصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه دون استظهار بذلك ولا استعظام له •

الثالث :

احتقار الدنيا وما يؤول إليها والكراهة لما يدل في الجملة عليها • فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، فتركها رأس كل فضيلة • وعلامة الصدق في ذلك أن لا تبخل بالموجود ولا تحزن على المفقود ، بل ترى فقده غنيمة(٣) في الوجود • وقد نقل البخاري عن بعض السلف ما يدل على أن هذه الثلاثة هي أصول الخير : الإنفاق من الإقتار ، وبذل السلام للعالم ، والإنصاف من نفسك • وقال رسول

---

(١) ما بين قوسين ساقط في ق •
(٢) د : فيقدره •
(٣) د : غنية •

الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات)فذكر في المنجيات : « خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب » ،والمهلكات: « شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه » ا هـ. وهذه هي الأصول الحقيقية . فارسم قلبك بها وارغب إلى الله في العمل عليها . فإنهـا من السيد الكامـل والعارف المطلق ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لكن تفاصيلها وجملها تدور على التوقف والاحتياط في كل أمـر . فالحظ ذلك فإنه المعين عليه . وبالله التوفيق .

وأما المعاملات فعلى مراصد هي المناهج والمقاصد :

أولها معاملة النفس وهي تدور[1] على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول :

وسمها بالتقوى[2] . وقد تقدم بعض ما يتعلق به . وكتب العلماء طافحة بتفاصيله مع شهرته[3] وسهولته . ولذلك لا يحتاج فيه لشيخ ولا مؤيد ، وإن كان فهو لما ظهر من حكمه كالمؤكد .

الضرب الثاني :

تحليتها بالاستقامة بدلا من الاعوجاج وهو الأخذ بكل فضيلة لا يؤول أمرها إلى نقص أو دفع أصل أو مدافعة . لأن ما آل إلى النقص كان نقصاً بنفسه وإن كان كمالا بصورته ، وما دفع أصلاً مع كونه تابعاً فدفعه أهم من دفـع مقابله ، وما أدى إلى المدافعة دعا إلى اعوجاج الحقيقة في حاله وبالتكرار ينطبع في الخيال فتجري عليه النفس في أحوالها . ولذا قلنا : إن تتبع الفضائل مذموم والحرص على منافع العامة مشوش وإقرار الجهة مطلوب .

(1) د : وهو يدور . ق : وهو على .
(2) د : العمل بالتقوى .
(3) د : مع ظهوره .

تحقيقها بالمعرفـة والعلم ويأتي[1] ذكره في الموقف الثالث — إن شاء الله •

تذييـــل :

قد تتدافع الحقوق والحقائق ، كالأخذ برضا الأبوين في طلب الاسباب مع فتور النفس عنها ومطالبة الشرع[2] بطلب العلم الظاهر مع تشويش الذهن به مشاركة أو وجوداً أو تذكراً • فيلزم التمسك بالأصل مع القيام بالحق[3] إن وسعته القوة ، وإلا دخل في كلّ بقدره مع مراعاة الأصل • فيطلب مجملاً في الطلب كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) • وقال الحسن (رحمه الله) : « اطلبوا هذا العلم طلباً لايضر بالعبادة، واطلبوا هذه العبادة طلباً لايضر بالعلم »• والوجه الذي يدفع الضرر بكل منهما يدور على ثلاثة أوجه :

أحدها :

حصر كل من كلّ[4] دون تقلب ولا تفلت ولا تأويل ولا رجوع للغـير •

الثاني :

حصر النوع المأخـوذ فيه دون تشعب ولا تشتيت ولا اضطراب • فلا[5] يبتدىء شيئاً قبل تمام غيره ولا يدع[6] شيئاً قبل فراغ فهمه •

الثالث :

حصر الوجه المأخوذ به • وهو على ثلاثة أنحاء : أحدها : القراءة على المشايخ

---

(1) د : وسيأتي •
(2) ق : ظاهر الشرع •
(3) ق : بالجواز •
(4) ق : حصر زمن كل •
(5) فلا — ساقطة في د •
(6) د : يدعى •

وهم كل من جاوز رتبته في أي فن كان على قدره • الثاني : الإقراء للمبتدئين • وذلك كل من قصر عن رتبته وإن كان ما كان • الثالث : المذاكرة مع أقرانه وإن كانوا فوقه فهماً أو دونه أو مثله •

لكنه(١) يحتاج في الكل إلى ثلاثة لا بد له منها :

أولها :

الدخول علـى وجه يلتزمه لنفسه في الإفادة والاستفادة لا يتعـداه وإلا تشعبت عليه الأمور ولم يحصل على طائل إلا بعد مدة •

الثاني :

أن يسلم ما ليس من غرضه مما يأتي به شيخه ولا يشغل(٢) باله به لا رداً ولا قبولاً ولا تفريقاً ولا تأصيلاً •

الثالث :

أن يعدل في أحواله وأن يعطي كل رتبة حقها دون تخليط فإن مفاتيح العلم في ترتيبه • فكل علم لم يسبق له [فيه شيء فلا يشغل باله بغير تصور مسائله ، وإلا لم ينتفـع به • وكل علم سبق له](٣) تصوره نظر في جمع شتاته بالتنظير والتوجيه ونحوه • وكل علم أدرك كليات أبوابه نظر في تعليله وذليله • وهـذا يجري في جميع الأبواب وكل الفنون • لكن الالتفات إلى التحقيق في المبادىء مانع من بلوغ طور التناهي(٤) ، إذ كل باب له من العول مالا(٥) منتهى له • وقد سئل مالك ــ رحمه الله ــ عن طلب العلم فقال : « حسن • ولكن اعرف ما يلزمك من صباحك إلى مسائك • فلا تؤثر عليه شيئاً » • انتهى ــ وهو القول الفصل

(١) د : إلا أنه •
(٢) ق : يشتغل •
(٣) ما بين قوسين ساقط في ق •
(٤) د : طور بلوغ التناهي •
(٥) د : وإلا •

فقضية خاصة(٢) عيّنتها الحالة • والعلم وظيفة العمر والآخرة لا بد من عمارتها •

المرصد الثاني في معاملة(٣) الخلق وذلك بثلاثة أمور :

أحدها :

أن تعد نفسك فيهم غريباً فلا تطلب منهم حقاً ولا ترى لك في ماهم عليه خيرة (٤)فتتركهم وما دفعوا إليه وتعمل على ما يخلصك عند مولاك ، محتملاً أذاهم ، معظماً ومحترماً إياهم إلا بحسب ما أمرت أو زجرت •

الثاني :

أن تكبر عليهم أربعاً وتحسبهم من جمـلة الموتى • فلا تعتمد عليهم في أحوالك ولا تأ ملحظهم في أعمالك وترى ما يجري منهم ليس صادراً في الحقيقة عنهم ، وإنما هم مسخرون أو مسلطون • فترجع لمولاهم شكراً حيث أحسنوا والتجاء واضطراراً حيث أساءوا وأخشنوا •

الثالث :

أن ترحمهم في ماهم فيه فتصلهم بما تقدر عليه من منافع الدين والدنيا التي لا يعود عليك منها ضرر عاجل ولا آجل لأن مصلحة الإنسان مقدمة على غيره في الدين والدنيا ولا يقدم مصلحة غيره إلا الأحمق • وإنما الإيثار عند المضايقة في الحاجات(٥) لا عند مقابلة الضروريات • وهذا الباب يحتاج لعلم واسع من خارج لمن ابتلى بمصاحبة الخلق وفقه غزير من داخل يقف صاحبه على بساط الحق• فاعتصم بالله واحذر خلطة الناس غاية جهدك• وبالله ــ سبحانه ــ التوفيق•

---

(١) المآب ــ ساقطة في د •
(٢) خاصة ــ ساقطة في ق •
(٣) ق : مجاملة •
(٤) د : حيرة •
(٥) د : الحاجيات •

ترتيب :

لا بد من عيش وعقل وعلم . فالعيش لمعاملة[1] النفس والعقل لمعاملة الناس والعلم لمعاملة الحق والخلق في سجى[2] الطباع . فلا يمكن إرضاء الكل إلا[3] بتغضيب الكل . وكل من قلد دينه الرجال زلت به قدمه في مهوات التلف ، لفساد الزمان وفقد الأعوان . كما أنشدنا الشيخ أبو عبد الله السراج - رحمه الله:

فسد الزمان فأين أين المهرب ... وفشى الحرام فأي كسب[4] يطلب

وتعامت العلماء عن شبهاتهـا ... فلمثل ذا فليعجب المتعجب

من ذا نشاور في مرامـة[5] ديننا ... أو من لنا في ذا الزمـان مؤدب

وقال الفضيل - رحمه الله - : « [هذا زمان السوء][6] فاحفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر » .

واعلم أني خبرت[7] الناس جملة وتفصيلا فلم أجد إلا رجلاً يريد أن يكمل بك دنياه ، أو رجلاً يريد أن يستعين بك على هواه ، أو ثالثاً يستأنس بك في ما هو به من مناه[8] . والكمال كله في علم بحق أو عمل بصدق أو حال بحقيقة . ولن تصل من كل منها[9] إلا ما قسم لك . فلا تعجل في الطلب ولا تتباطأ في السبب . والله ولينا في ما نرومه من ذلك . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(1) ق : مقابلة .
(2) ق : سجن الطباع .
(3) ق : ولا تغضب الكل .
(4) ق : مكسب . د : كهف .
(5) ق : مرمة .
(6) ما بين قوسين ساقط في د .
(7) د : واعلم يا أخي انني اختبرت .
(8) د : منال .
(9) ق : كلها .

المرصد الثالث في معاملة الحق سبحانه • وتدور على ثلاثة أشياء :

أولها :

امتثـال أمره بالمبادرة دون تراخ ولا مهـلة • وقد كان بعضهم إذا سمع النداء ألقى المطرقة من خلفه مخافة أن يعمل قبل الإجابة • وجاء : « عبدي • إذا أتاك أمري فكن كالنار وإلا أدخلتك[1] النار » وهذا متولد من غلبة التعظيم والإجلال عند قوم ومن عظيم الخوف والحياء عند قوم • وكل على هدى ـ وإن كان البعض أهدى •

الثاني :

التحفظ في امتثال الأمر باستقصاء أعظم المقدور على وفق السنة في الترخص والتشديد لأن كلاً منهما خارج عن الاضمار • وقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ في الصلاة : « من حفظها وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ • ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » • وقال أبو بكر بن العربي : « ولقـد رأيت ممن يحافظ عليها آلافاً لا أحصيها ولا أعد ممن يحافظ عليها خمسة[2] » • وإنه لكذلك •

الثالث :

حفظ الحرمة بالتسليم لأحكامه والرضا بما يأتي من نقضه وإبرامه • مع ترك ما يؤدي إلى إسقاطها ، كذكره ـ تعالى ـ كثيراً لاعلى وجه التعظيم وإدخال الشبه في وصفه العلي العظيم • وهذه الإشارة كافية وبالمقصود وافية • فلقـد نهينا عن[3] أن نجعله ـ تعالى ـ عرضةً لأيماننا وأن لا نسب الذين يدعون من دون الله لئلا نقابل بمثل ذلك • وبالله التوفيق •

---

(1) ق : أدخلك •

(2) ق : خمساً والكلمة ساقطة في د •

(3) د : على •

اعلم ــ وفقنـا الله وإياك لما يصلح ديننا ودنيانا ورزقنـا اتباع الحق في متقلبنـا(١) ومثوانا ــ أن التوبـة مفتـاح ، والتقوى براح(٢) ، والاستقامـة إصلاح(٣) . والعبد لا يخلو من زلة أو تقصير أو فترة . فلا تكن منك غفلة عن التوبة ولا إعراض عن الأوبة ولا إهمال للقربة . بل كلما وقعت فتب(٤) وارجع ، وكلما أخطأت فاسمع وأطع ، وكلما قصرت أو فترت فلا تنقطع . وليكن همك في تخلية ظاهرك عن القبائح ، ثم في إقامة رسمه بوجود النصائح . حتى إذا صار لك الفرار من القبائح ملكة والوقوف على الحدود شبكة، توجه لقلبك بالإحضار، ولحقيقته(٥) بالفكر والإذكار . ولا تعجل للنهاية ، قبل تمكن البداية ولا تقف مع البداية(٦) ، دون تطلع للنهاية ، فإن من طلب بداية في نهاية فاتته العناية ، ومن طلب نهاية في بداية فاتته الهداية .

واعمل بالقواعد والأحكام ، لا بالحكايات والأوهام . ولا تلتفت للحكايات إلا من حيث التقوية على ما تريده ، لا للأخذ بما تقتضيه من الصور أو تفيده . والزم في ذلك طريقاً ترجع إليه، وأصلاً تعوّل(٧) في أحوالك عليه. وأحسنها طريق ابن عطاء الله ، لما فيه من الدلالة على الله . ولا تأخذ من كلام الغير إلا ما يوافق طريقك ، مسلماً ما وراءه إن أردت تحقيقك .

واهجر الهجر جملة واطرح ما لم تستشعر فائدته لأول(٨) وهلة . وإياك والتشديد على نفسك قبل إحكامها والترخيص لها في شيء من أحكامها . فإنها تفر من الوسط أبداً ، وتريد الاستقصاء في الغي والهدى .

(١) ق : مستقبلنا .
(٢) ق : أبراج .
(٣) ق : أضاح .
(٤) د : فارجع .
(٥) د : والحقيقة .
(٦) د : تقف للبداية .
(٧) ق : تعود .
(٨) ق : بأول .

واطلب صديقاً تستعين به على أمرك ، وتفارضه في ما يعرض من سرك وجهرك . فإذا صحبته فعامله على قدر حاله وتفاوضه من نفسك على قدر نقصه وكماله . لأن الصديق الكامل معدوم ، والرفيق الموافق في هذه الأزمنة قلّ أن يدوم . واحذر الكافة على دينك ودنياك إلا من متحقق[1] فيه وجود النسبة الصحيحة بمولاك بعلم لا يصحبه هوى ولا رئاسة ، وعقل سليم من آفات السياسة . ولا تغفل عن مكر الناس وخفيات أحوالهم ، واعتبر ذلك من أصولهم وأعمالهم . فالأصيل لا يأتيك غالباً إلا بخير[2] ، والدخيل هون عليك أصله عند هول السير ..

وراع في كل بلد ما يغلب على أهله . فلا تغفل عن حكمة الله في الخلق ، ولاحظ الجمع في عين الفرق . وقد بينا بعض ذلك في (القواعد) فانظره في محله.

وصاحب[3] الوقت في الموافقة بالرفق والاحتمال ، وإياك والغلظة[4] والاسترسال ، فإن الاسترسال في المباحات يجذب القلوب إلى خلف ، ويصير الرجل الحازم كالولد الخلف .

واعمل لدنياك كأنك حي أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك ميت غداً . فلا تهمل ظاهر دنياك ، ولا تغفل عن متقلبك ومثواك . واحذر الرئاسة جهدك ، فإن بليت بها فاعرف قدرك وحدك . وانصح لله [5] نصح من يعلم أنه يطالبه ، واستسلم لحكمه استسلام من يعلم أنه لا يغالبه . واجعل لكل شيء عتاداً[6] تنج من الآفات ، ورتب أورادك تجد بركة الأوقات .

(1) د : من تحقق .
(2) د : الا خير . ق : الأخير .
(3) د : واصحب .
(4) ق : والغلطة .
(5) ق : فانصح اليه .
(6) د : واجعل لكل شيء أوقات عساك تنجو .

... في حق ولا باطل تبق سليم الصدر ، ولا تدع ما تستحقه فضلا عن غيره تنج من المكر والغدر • فإن من ادعى فوق رتبته حط لدونها ومن ادعى غير رتبته نوزع فيها ومن وقف دون ما يستحقه رفع فوق ما يستحقه • ولا تعط الجليس من حالك إلا ما يقتضيه حاله ، فإنك إن تجاوزت(١) حالك لحاله احتقرت ، وإن رجعت بحاله إلى حالك هجرت •

ولا تطلب أحـداً بحق قريباً كان أو بعيداً ، لأن البعيـد لا حق لك عليه ، والقريب أجل من أن توجه العتب إليه • ولا تظن أن في الدنيا من يفهم عنك ما أنت فيه ، إلا(٢) بما هو فيه ، فكل أحد إنما يفهم ما يتبعه ويقتفيه • لكن إذا تقاربت المقاصد والهمم ، تعاونت النفوس بمواطيء(٣) القدم • ولا تحتقر شيئاً من ذكر الناس ، ومما لا بأس به(٤) لما يداخله من البأس • واحفظ سرك وإن أمنت عليه ، إذ ليس بآمن من قلبك من تبثه إليه •

ولا تدع ذرة من وردك ، ولا تسمح فيه في حال قصدك وجدّك • بل إن فاتك في وقته استدركه في غيره • وإن لم تقدر على عينه أشغل وقتك ببدله عـلى قدره • ولا تطع نفسك(٥) في لحظة ، ولا تصدّقها ــ فيما تدعيه ــ في لفظـة • واحذر العزم جهدك في الأمور ، فإذا عزمت فبادر قبل أن تدور • وفتش نفسك في ما وجب عليك وطلب(٦) ، وكل شيء أنت عنه في غنى فاتركه وإن كان مما ندب• وذلك مما لا تدعوك الضرورة أو الحاجة المحققة للخوض فيه ، وعامل الناس بما تحب أن تعامل به وتستوفيه • وذلك كله مجموع في قول الشاعر :

إذا شئت أن تحيـا ودينك سالـم   وحظك مـوفور وعرضك صـين

---

(١) ق : ان جاوزت •
(٢) ق : ولا •
(٣) د : بمواطأة •
(٤) لا بأس به ــ ساقطة في ق •
(٥) ق : ولا تطمئن لنفسك •
(٦) د : وطولب •

لسانك لا تذكر بـه عورة امرىء   فعنـدك عورات وللنـاس أعين

وعينك إن أبـدت إليك معايبـا   من الناس قل: يا عين للناس أعين[1]

وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى   وفـارق ولكـن بالتي هي أحسن

ومأخذ ذلك من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (اتق الله حيث كنت • واتبع السيئة الحسنة تمحها • وخالق الناس بخلق حسن) • وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كل[2] ابن آدم خطاء • وخير الخطائين التوابون) • وقال (عليه الصلاة والسلام) : (إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لا تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها • فاتقوا الله واجملوا في الطلب) ـ الحديث •

والحاصل أن التوبة والتقوى والاستقامة أصول الخيرات في الجملة • والحق واضح وتفاصيله جليلة • والأمر لله ، والتوفيق بيده • والسلام •

الموقف الثالث :

موقف التحقيق[3] والعرفان والترقي في مقامات الإحسان ومداره على ثلاث مقدمات ، تتبعها ثلاثة أمور مهمات :

المقدمة الأولى :

في كمال التخلي (بالخاء المعجمة) ومدارها على ثلاثة أشياء :

الأول :

تحقيق التقوى بالورع حتى لا يبقى له[4] في العقل ريب ولا في العلم ريبة

(1) هذا البيت ورد في هامش د تصحيحاً لبيت ورد هكذا :

وان أبصرت عيناك عيبا فقل لها   أيا عيني لا تنظري فللناس أعين

(2) ق : كان •
(3) د : التحقق في العرفان •
(4) له ـ ساقطة في ق •

ولا في العمل تقصير • وهذا شيء لا يصل إليه إلا بالله • ومفتاحه صدق القصد إلى الله فيه والعمل بما قدر عليه في حاله ، لأن الله — تعالى — يعين العبد على قدر نيته ، ويفتح له على قدر همته • ويظهر ذلك بشواهد أحواله في أعماله • فمن تورع عمّا(١) يقدر عليه حماه مولاه مما لا طاقة له به بالتحرز منه • وحكايات هذا الباب ووقائعه وتفاصيله كثيرة غزيرة ، وعليها مدار كلام القوم في مناحيهم •

الثاني :

كمال الاستقامة بتحقيق(٢) الاتباع على بساط الورع وترك ما يشك فيه عبادة كان أو عادة ما لم يجب فيأخذ بالأحوط ما قدر عليه مع تبصره فيه • لأن من أخذ علم حاله عن أقوال العلماء فتح له على قدرهم ، ومن أخذ أحواله عن نصوص الشريعة كان فتحه منها ، ومن جمع بينهما — وهو المتبصر — فهو أتم نورا وأوفى(٣) حالا • والله أعلم •

الثالث :

نفي الشواغل والشواغب(٤) وذلك بترك الشهوات وهجر المألوفات العاديات من حيث أنها شهوات ومألوفات لا من حيث ذاتها ، حتى لا تبقى في قلبه داعية لغير الحق والحقيقة في كل بساط بحسبه(٥) ، فهو يضايق نفسه وإن كان موسعاً عليها في الظاهر • ومرجع هذا الوجه أنه لا يقدم على شيء إلا بنية صحيحة تجري مجرى الباعث حتى لا يكون له عنه شيء(٦) والله أعلم •

المقدمة الثانية :

في بساط التحلي (بالحاء المهملة) ومداره على ثلاثة أمور :

---

(١) د :فيما •
(٢) د : تحقيق •
(٣) ق :وآوفر •
(٤) ق : والتواغب •
(٥) ق : وبحسب ذلك •
(٦) له عنه شيء بصلة • ق : عنه شيء •

الأول : •

إضعافُ القوى النفسانية عن دواعي كمالها الحسي والمعنوي • وذلك بالجوع والسهر والصمت والخلوة في اعتدال واعتزال دائم • ولذلك أمر بأن لا يحضر السماع ولا يسمع الأخبار ولا يتكلم مع الأغيار ، ويدع جميع ما كان مألوفاً عنده قبل سوى الواجبات ، لتتجمع حقيقته لما يريد •

الثاني :

تقوية الدواعي(١) بالتزام الذكر ، منوعاً في المبادىء(٢) ، مفرداً في التوسط ، مجموعاً في النهاية • إذ الأول تطهير ، والثاني استظهار ، والثالث تنوير • وما أردت أن يلزمك فالتزم ملزوميته ، ولذا قد يؤمر به المبتدي وهو أولى للاعتياد •• والله أعلم •

الثالث :

انتهاج الحقيقة وابتكارها بإجالة الفكر على قدر الموقع • لأن من أجال فكره دون موقع أتعب نفسه بحديث(٣) النفس وأنس الوسواس الذي ربما كان سبب حجبه للأبد • فافهم •

المقدمة الثالثة :

في موارد التجلي (بالجيم) وهي ثلاثة عند التقسيم :

الأول :

ظهور الفاقة والافتقار ، إما بانبعاثه(٤) حقيقة أو باضطرار • وذلك من

---

(١) ق : الداعي •

(٢) ق : الباري •

(٣) د : لحديث •

(٤) د : أولها بانبعاث •

استشعار النقص والفاقة ، لا من حيث الجد والطاعة . فالعمل إنما يراد لإشغال[1] النفس بالحق لا للإشراف على أسرار الحق . لأن ما عنده لا ينال إلاّ بالمنة ، وإن كان بساطه[2] اتباع السنة .

الثاني :

وجود الإطلاق في عين التقييد ، وإلزام الحقيقة بلوازم التوحيد . فلا يتقيد بظواهر الفعل عن باطن الصفة ، ولا يبطل أحكام الفعل في ما عرّفه أو عرفه . بل يتطلب المعاني ، ويلتزم المباني . فكل مالا يعقله في بساط البداية لا يقبله في حقائق النهاية ، ولا يصرفه قبل إرجاعه لأحد وجوهه المحتملة ، ولا يثبته دون أدلته الموصلة .

الثالث :

إعطاء كل حقيقة حكمها دون مداخلة في الوجوه وإلا دخل عليه الوهم في ما يتخيله[3] أو يرجوه . فإن البساط غلط ، والمحل محل ضيق وقنط ، إلا لمن[4] أيد وأنس وقليل ما هم . ولعسر هذا الباب وضيقه احتيج إلى ثلاثة أمور هي المفهومات[5] المذكورة :

أولها :

وجود المربي[6] بسره وسيره . وقد عدم [الثاني][7] مع وجود الأول وبقي كل منهما دون الآخر في هذه الأزمنة ، فاحتيج لأخذ كل واحد من جهته .. وإنه لعسير إلا لمن يسره الله عليه .

---

(1) د : لاشتغال .
(2) د : بساط .
(3) ق : ينحله .
(4) د : إلاّ من .
(5) ق : التتمات .
(6) ق : الشيخ المربي .
(7) ساقطة في د .

الثاني :

الأخ المعين بحاله وعمله ، وإنه لا عدم من معدوم ، وإن وجد فعلى التفكيك، حسبما(١) رأيناه ــ بل لم نر تاماً في وجه من الوجوه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولكن قارب من قارب يعينك على ما أنت به ، ويرفعك لغيره فاتبعه .

الثالث :

تفقد(٢) الحال بعد الكمال والشفقة من النقص في الحال والعمـــل بما(٣) يقدر عليه عند القصور ، والذي أراه لأمثالنا أن يأخذوا(٤) بتصحيح [الموقنين](٥) الأولين والإلمام(٦) بالمقام الثالث في بعض الأحيان ــ تعرضاً لنفحات رحمـه الله وخصوصاً في الأيام الفاضلة ، مثل أواخر شهر رمضان وعشر ذي الحجة وما كان في معناها . فإن الشارع قد اعتبرها بذلك وتغفل عن العذل واللوم في الجميع .

ونستعين على أمرنا بالله ثم بإفراد الهمة في المقاصد وإفراد الحقيقة للمطالب . ونجعل الآخرة نصب أعيننا إن عقلنا . ولا نسمع لمن برق ورعد . ولا لمن قام وقعد . فإن القوم في هذه الأزمنة نادوا(٧) الحقيقة بالحرج ، والآخرين(٨) مشوا إلى الحق بالعرج . فلا علم عن الحرام يصد ولا ورع عن الاسترسال يرد . وهذا إمام الفقه(٩) عبد الرحمان بن القاسم يقول ــ بعد وفاته ــ لمن رآه في النوم : « ما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها(١٠) في جوف الليل بساحل الإسكندرية ». وإمام التصوف الجنيد ــ رحمه الله تعالى ــ يقول مثله ، مع ما كان عليــه من العلوم

---

(١) د : ربما .
(٢) ق : بفقــد .
(٣) د : على ما .
(٤) ق : يأخذ .
(٥) ساقطة في د .
(٦) د : والالهام .
(٧) د : بادوا .
(٨) د : والآخرون .
(٩) د : الامام الفقيه .
(١٠) كنا نركعها ــ ساقطة في د .

والأعمال السنية • وقد صح أن لا كمال إلا بالعلم ، ولا خطر للعلم إلا بالعمل[١]• فلا تسمع مقالــة من صدك عن واحــد منهما ، ولا من رجــح واحداً في محل الآخر دونه •

وبالله قل لي — إذا كان العلم وظيفة الوقت — متى تقف بين يدي الله وقفة صدق وحق ؟ وإذا جعلت العمل ديدن[٢] زمانك متى تصل إلى تحقيق أعمالك ؟ •

اللهم إنك[٣] تعلم أني وضعت هذا الكتاب لأنتفع به في نفسي ، وأنفع به إخواني وأبناء جنسي • فانفعنا به فمع من كان له ذلك بتأييدك ، وأعانه على ذلك وجود تسديدك • فلم يقصر في ما طلب منه[٤] ، ولم يغفــل في ما صدر عنه • واجعل منفعته عامــة لكل[٥] من رآه ، وابسط نوره في حقيقة كل من طالعــه واقتفاه[٦] • وبلغه لقلبي وقلوبهم في عافية كاملة شاملة جامعة — حالاً ومآلاً • فإنك ولي ذلك والقادر عليه • يا مولاي •• يا الله • أنت حسبنا ونعم الوكيل • والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى •

* * *

---

(١) د : ولا حصن للعلم الا العمل •

(٢) د ، ق : ديدان •

(٣) انك — ساقطة في ق •

(٤) منه — ساقطة في د •

(٥) د : لجميع •

(٦) د : واقتناه •

وكان الفراغ من تعلقة مبيضته على يد مؤلفه الفقير إلى مولاه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي ثم الفاسي ، عرف بزرّوق ــ أصلحه الله ــ في ٢٤ من شوال سنة ٨٨٣ عرفنا الله خيره وخير ما بعده ــ ببجاية . أمنها الله تعالى .

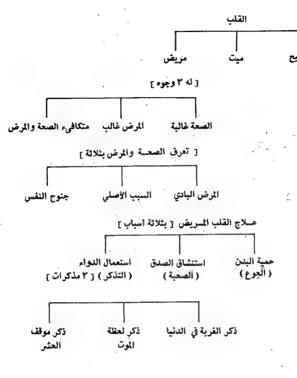
والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً .

كمل بحمد الله وتأييده ، وتوفيقه وتسديده .

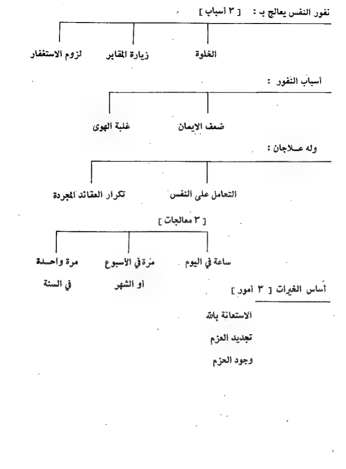
* * *

فيما يلي يجد القارىء جدولاً بمحتويات كتاب « إعانة المتوجه المسكين » حسب تسلسلها بالترتيب الذي وضعه المؤلف — رحمه الله — • وهو ترتيب ينبني لاحقه على سابقه • ولم نشأ أن نتبع نظام الفهرس ووضع العنوان لكل فقرة فيه ، إذ يتطلب هذا عنوانات كثيرة — بحسب كل فقرة وردت في الكتاب • وفضلنا هذا النمط من الجداول نظراً لترابط فصول الكتاب وفقراته واعتماد كل منها على ما ذكر قبله •

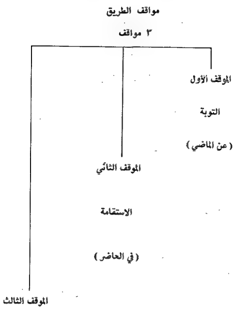
جداول الموضوعات



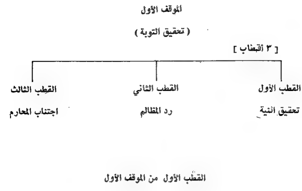
القلب
صحيح
ميت
مريض
[له ٣ وجوه]
الصحة غالبة
المرض غالب
متكافىء الصحة والمرض
[تعرف الصحة والمرض بثلاثة]
المرض البادي
السبب الأصلي
جنوح النفس
علاج القلب المريض [بثلاثة أسباب]
حمية البدن
(الجوع)
استنشاق الصدق
(الصحبة)
استعمال الدواء
(التذكر) [٣ مذكرات]
ذكر الغربة في الدنيا
ذكر لحظة
الموت
ذكر موقف
الحشر



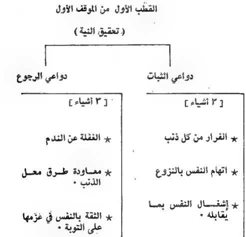
نفور النفس يعالج بـ : [٣ أسباب]
الخلوة
زيارة المقابر
لزوم الاستغفار
أسباب النفور :
ضعف الإيمان
غلبة الهوى
وله عـلاجان :
التحامل على النفس
تكرار العقائد المجردة
[٣ معالجات]
ساعة في اليوم
مرة في الأسبوع أو الشهر
مرة واحـدة في السنة
أساس الخيرات [٣ أمور]
الاستعانة بالله
تجديد العزم
وجود الحزم



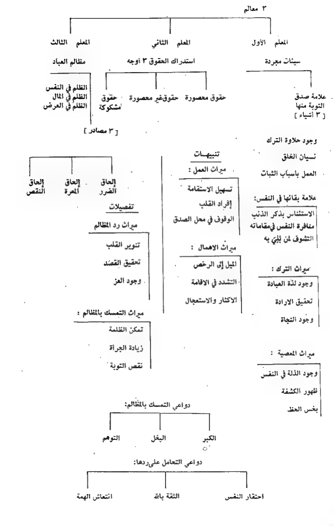
مواقف الطريق
٣ مواقف
الموقف الأول
التوبة
(عن الماضي)
الموقف الثاني
الاستقامة
(في الحاضر)
الموقف الثالث
التحقيق
(للمستقبل)



الموقف الأول
(تحقيق التوبة)
[٣ أقطاب]
القطب الأول
تحقيق النية
القطب الثاني
رد المظالم
القطب الثالث
اجتناب المحارم



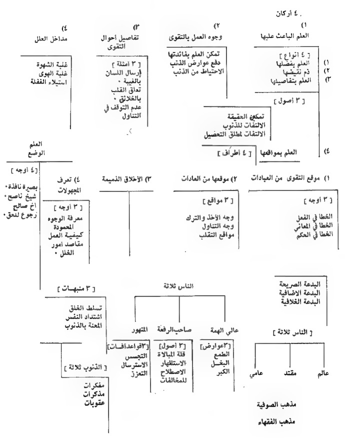
القطب الأول من الموقف الأول
(تحقيق النية)
دواعي الثبات
[٣ أشياء]
★ الفرار من كل ذنب
★ اتهام النفس بالنزوع
★ إشغال النفس بما يقابله .
دواعي الرجوع
[٣ أشياء]
★ الغفلة عن الندم
★ معاودة طرق محل الذنب .
★ الثقة بالنفس في عزمها على التوبة .



٣ معالم
المعلم الأول
المعلم الثاني
المعلم الثالث
سيئات مجردة
استدراك الحقوق ٣ أوجه
مظالم العباد
حقوق معصورة
حقوق غير معصورة
حقوق مشكوكة
الظلم في النفس
الظلم في المال
الظلم في العرض
علامة صدق التوبة منها [٣ أشياء]
[٣ مصادر]
وجود حلاوة الترك
نسيان الخلق
العمل باسباب الثبات
تنبيهات
ميراث العمل :
تسهيل الاستقامة
إفراد القلب
الوقوف في محل الصدق
إلحاق الضرر
إلحاق المعرة
إلحاق النقص
تفصيلات
ميراث رد المظالم
تنوير القلب
تحقيق القصد
وجود العز
علامة بقائها في النفس:
الاستئناس بذكر الذنب
منافرة النفس في مقاماته
التشوق لمن يلي به
ميراث الاهمال :
الميل إلى الرخص
التشدد في الاقامة
الاكثار والاستعجال
ميراث الترك :
وجود لذة العبادة
تحقيق الارادة
وجود النجاة
ميراث التمسك بالمظالم :
تمكن الظلمة
زيادة الجرأة
نقص التوبة
ميراث المعصية :
وجود الذلة في النفس
ظهور الكشفة
بخس الحظ
دواعي التمسك بالمظالم:
الكبر
البخل
التوهم
دواعي التحامل على ردها:
احتقار النفس
الثقة بالله
انتعاش الهمة

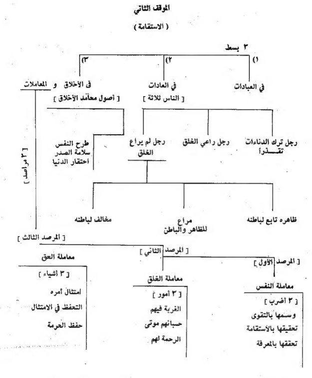
القطب الثالث من الموقف الأول

(اجتناب المحارم)



الموقف الثاني

(الاستقامة)



رفع الضرر

[٣ أوجـــــه]

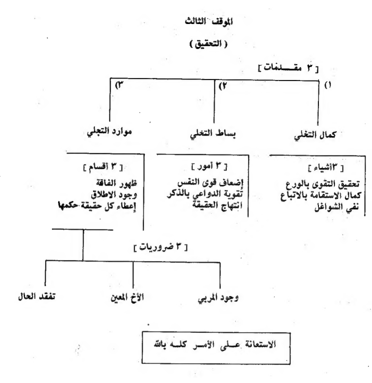
حصر كل من كل

حصر النوع المأخوذ فيه

حصر الوجه المأخوذ به

الموقف الثالث

(التحقيق)



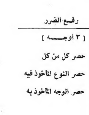
الاستعانة على الأمر كله بالله

الموقف الثاني

(الاستقامة)

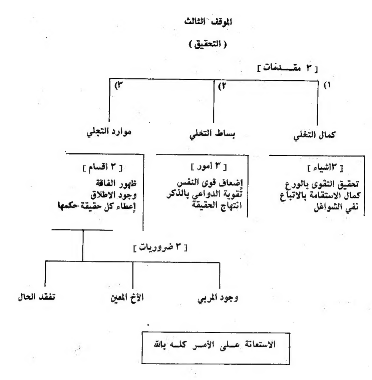
٣ بسط

- ١) في العبادات
- ٢) في العادات [الناس ثلاثة]
  - رجل ترك الدناءات تقـــذراً
  - رجل راعي الخلق
  - رجل لم يراع الخلق
    - ظاهره تابع لباطنه
    - مراعٍ للظاهر والباطن
    - مخالف لباطنه
- ٣) في الأخلاق و المعاملات
  - في الأخلاق [أصول محاَمد الأخلاق]
    - طرح النفس
    - سلامة الصدر
    - احتقار الدنيا
  - المعاملات [٣ مراصد]
    - [المرصد الأول] معاملة النفس [٣ أضرب]
      - وسمها بالتقوى
      - تحقيقها بالاستقامة
      - تحققها بالمعرفة
    - [المرصد الثاني] معاملة الخلق [٣ أمور]
      - الغربة فيهم
      - حسبانهم موتى
      - الرحمة لهم
    - [المرصد الثالث] معاملة الحق [٣ أشياء]
      - امتثال أمره
      - التعفف في الامتثال
      - حفظ الحرمة



الموقف الثالث

(التحقيق)



الاستعانة عـلى الأمـر كلـه بالله